وهم اللامبالاة

رحلة البحث عن حياة أكثر استقرارا

حمزة عماري

وهم اللامبالاة

رحلة البحث عن حياة أكثر استقرارا

تأليف:

حمزة بن محمد عماري

الطبعة التجريبية: 1441هـ-2020م

للتواصل مع المؤلف:

عبر البريد الإلكتروني: ammarhamza390@gmail.com

أو عبر صفحة الفيس بوك: https://www.facebook.com/ammari.hamzaa

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، أما بعد:

فِي هذا العالمِ المتسارعِ حيثُ لا مجالَ للسَّكينةِ أو الرَّاحةِ أو التَّفكُر، وحيثُ مواقعُ التَّواصلِ تُسيطرُ على عُقولنَا، وتصنعُ الفوضى فِي كلِّ مكانٍ، باتَ منَ المُؤكَّدِ أنَّنَا نفتقدُ شيئًا عزيزًا عَلينَا، شيئًا نَسيناهُ في زَحمةِ انشغالاتنَا، ولم نَعدْ نَدريِ هلْ هُو حيٌّ يُرزقُ أمْ قد طوتهُ الأكفانُ؟.

يحاولُ هذا الكِتابُ البحثَ عنْ هذا الماردِ المفقودِ ليحرِّرهُ من تلكَ القيودِ، إنَّه يبحثُ في أعماقنَا الدَّفينةِ عن أنفسنَا المكلومةِ ليتصالحَ معهَا، ويُعيدَ بناءَ ما انقطعَ معها من أواصرِ الثقةِ والأُلفةِ والانْسِجامِ.

يحاولُ هذا الكتابُ أن يخلقَ جوًّا صحيًّا لمراجعةِ الماضِي، وفَهمِ الحاضرِ والتطلعِ إلى المُستقبلِ، مِن خلالِ نظرةٍ واعيةٍ تُسمِّي الأشياءَ بمسمَّياتها، وتُنهي حياةً طويلةً من العشوائيةِ والغُموضِ.

رُبما ستجدُ في هذا الكِتابِ مَا يقودكَ إلى عَالمٍ واضحِ المعالمِ تتعرفُ فيهِ على نفْسكَ من جديدٍ، وتَفْقهُ فيهِ حقيقةَ رغباتهَا، وتتناقشُ فيه معهَا على طاولةِ الصراحةِ حولَ كلِّ ما كانَ يشغلكَ، ستتحدثُ معهَا عن التغييراتِ الجذريةِ والمصيريةِ التي كنتَ تحبُ أن تتخذهَا لكنكَ كنتَ تخافُ عواقبهَا، وسَتُخرجُ لها تلكَ الملفاتَ الحسَّاسةَ التي طالما أبقيتهَا في دُرجِ الانتظارِ خوفًا من آثارهَا السِّلبيةِ على حياتكَ، ستتحدثُ معهَا عن أَشياءٍ كثيرةٍ بجرأةٍ ووعيٍ أَكبرَ، لتخرجَ في النِّهاية إنسانًا آخرَ أكثرَ فَهمًا لنفسهِ وللحياةِ.

بين يدي الكتاب

إن التفوق الغربي الرهيب واتساع الفجوة بيننا وبينهم في كل لحظة، يجعلنا نميل لأن نكون شعوبا مستهلكة، ثم نزيد على ذلك بأن نكون مستهلكين سيئين، نلتهم كل ما وجدناه في طريقنا من غير تمحيص ولا تنقيح.

نتلهف لقراءة كل جديد قادم من الضفة الأخرى فنقرأه قراءة تسليم، رغم أن القادم من تلك الضفة لا يسلم من الزلل، وقابل للنقد، والأخذ والرد.

فليس عجيبا والحال كذلك أن ترى كتابا مليئا بالخطل يلقى رواجا في بُلداننا، ويتواصى الناس بقراءته تواصيهم بقراءة النصوص المقدسة.

نعم، نحن نحتاج إلى تلك العلوم النافعة المنتشرة هناك، لكننا لا نحتاج إلى تلك الثقافة الهابطة، والفكر المنحل، والعقائد الزائغة، التي تنخر مجتمعاتنا وتُحلل بنيتها المتينة، وتقودنا إلى عالم عديم الأخلاق والقيم.

نحن نعيش في عالم تتصارع فيه الحضارات صراعا هادئا، يبدو جادا أحيانا، وفي أحيان أخرى لا يظهر البتة، ولا نرى منه سوى بعض الآثار التي تطفو على السطح، فماذا نفعل حيال هذا الصراع؟.

في الحقيقة نحن لا نفعل شيئا سوى ترجمة وقراءة الروايات، وبعضا من كتب تطوير الذات، ونبتعد عن القراءات العلمية النافعة، نحن نبحث عن المتعة الآنية، ولا نسعى لتطوير ذواتنا لتتلاءم فيها رغباتنا مع حاجاتنا، وهذا مؤسف حقا.

إن ولع الناس بكتب تطوير الذات ليس مقتصرا على تعلقها بالذات وطرق تحسين

آدائها، فكتب علم النفس تفعل ذلك ومع ذلك هي كتب مهجورة، وإنما السِّر في ولع الناس بها كونها كتبا شبيهة بكتب السِّير، والقصص القصيرة، والروايات.

لقد جمعت كل ذلك وأضافت إليه شيئا من الخطاب المباشر للقارئ الذي يعطيه الدفء والأمان، لكنها مع هذه الجاذبية يغلب عليها كثرة الحشو وقلة النفع.

إن وظيفة عَرَّابي التنمية هي بيع الأوهام للنَّاس، ينظر أحدهم إلى العالم من خلال نفسه، ويظن أن كل ما يصلح له يصلح لغيره، ثم يضيف إلى ذلك مجموعة كبيرة من الأوهام المبنية على القصص والحكايات مستغنيا عن طرق تحصيل المعرفة، ثم يصوغ كل ذلك بأسلوب قصصي مشوق، ويدفعه للناس ليجعلوه نبراسا يضيء لهم الطريق.

ما يزيدك يقينا في تهافت هؤلاء المُدَّعين هو اختلافهم الكبير، وتضارب مناهجهم، فكل واحد منهم يدَّعي أنه الأفهم والأعلم والأقدر على الوصول إلى الحقائق.

ولا يختلف كتاب «فن اللامبالاة» لمارك مانسون في ذلك عن غيره، فرغم أن المؤلف يبدو في أول كتابه ناقما على كتب تطوير الذات ساخرا منها، إلا أنه استخدم نفس أسلوب هذه الكتب، ونفس طرق الاستدلال، ووقع في نفس الأخطاء، وزاد عليها تشتت الأفكار وعدم انضباطها ووضوحها، مما يجعل القارئ في حيرة من أمره، لا يستطيع فهم الأفكار، ولا ربط بعضها ببعض، ويمكن مشاهدة أثر ذلك في الملخصات الكثيرة للكتاب، والتي تصل درجة الاختلاف بينها إلى حد يوهمك بأن أصحابها قرأوا كتبا مختلفة.

لقد خرج مانسون عن إجماع مطوِّري الذات في دعوته إلى اللامبالاة، وما قام به ليس

عيبا في حد ذاته، فقد اجتهد كما اجتهدوا، وكثيرا ما كان الخروج عن المألوف والتحرر منه بداية للعلم والمعرفة، لكن عيبه أنه لم يبرهن على صحة ما ادّعاه، ولجأ بدل ذلك إلى أساليب ملتوية لتغطية عجزه.

رغم مخالفة مانسون لمطوري الذات إلا أن أفكاره ليست جديدة، فهي منثورة في كتب الباحثين من قبله، بل إن أهم أفكاره مبثوثة في النصوص الفلسفية البوذية القديمة، قرَّبها إلى العالم الغربي مفكرون سبقوه، وأعاد المؤلف صياغتها وزاد في تطرفها.

إنني في هذا العمل أُعيد صياغة كتاب «فن اللامبالاة .. نهج غير معتاد من أجل حياة جيدة» بترتيب أفكاره وبيانها، واستخراج فوائده، وتصحيح أخطائه، مع بعض الإضافات التي رأيتها مناسبة، فليس غرضي منه مجرد النقد.

وقد حرصت على أن يكون الرد سَلِسًا، وعلى نسق ما وضعه المؤلف حتى يستسيغه القارئ، رغم صعوبة ذلك، إذ أن النقد في الغالب يستدعي استحضار كلام المؤلف والرد العقلي عليه، وهو ما يُعسِّر هضم الردود، وينفِّر القراء منها.

ومنهجي في الكتاب ليس له قاعدة تحكمه، فأحيانا أُدرج كلام المؤلف حرفيا أو بالمعنى ثم أُعقِّب عليه، وأحيانا أناقش فكرته دون أن أدرج كلامه، وأحيانا أؤسس للموضوع وأُتبعه بكلام المؤلف، وأفصل بين الكلامين بفاصل ظاهر، فإن كان الفاصل خفيا وضعت الاختصار الشهير (اهـ) عقب كلام المؤلف.

وقد كان مشروعي مبنيا على تغيير كتاب مانسون تغييرا جذريا، وذلك من خلال تغيير عناوينه وزيادة موضوعاته، وعملت على ذلك مدة، ثم ارتأيت أن أُبقي على بناء المؤلف حتى يسهل الربط بين العملين، ولذلك ستجد أن العناوين الأولى قد أصابتها

رياح التغيير، كما ستجد بعض العناوين الزائدة.

لقد قرأت آلاف التعليقات على الكتاب، ومئات المقالات والمراجعات له، فوجدتها انقسمت بين تأكيد لوجود المنفعة فيه، وبين تسفيه له وتقليل من قيمته، ومن النادر أن تجد كتابا شهيرا يقرأه كل الناس، ثم يتباينون في تقييمه تباينا شديدا، فيقول جزء كبير منهم: إننا لا نجد متعة في قراءته أو لا نجد منفعة فيه، لكن المراجعات المرئية على اليوتيوب مجمعة على عظمته والمنافع التي فيه بحيث تجعلك تلك المراجعات تتساءل: بأي عين قرأ هؤلاء الكتاب؟!.

قد لا يبدو لك هذا الكلام جديدا فلعلك اصطدمت بحملة السخط على الكتاب، أو لعلك أحد الساخطين عليه. الجديد الذي ستجده هنا هو أنك سترى عيانا سبب السخط، أو سترى عيانا كثيرا من الأشياء التي دارت في خلدك، وأنت تقرأ الكتاب، وأدت إلى سخطك عليه، أو الأشياء التي أحسست بها دون أن تحسن التعبير عنها، سترى كذلك التوجيه الصحيح، فليس الغرض مجرد الهدم، بل محاولة وضع اللبنات الأولى للبناء الصحيح.

الفصل الأول: حاول دائما ولا تيأس

إذا لم تحقق أهدافك فمت وأنت تحاول، يمكنك أن تغير أهدافك دائما بما يتلاءم مع إمكانياتك وظروفك، وأن تواصل مسيرتك دون كلل، أو ملل، أو يأس، حتى تبلغها أو تموت دونها.

يُحدثنا التاريخ عن أناس لم يستسلموا لظروفهم، وتحدَّوا الإعاقة، أو الحصار، أو التجاهل، أو تدني المكانة الاجتماعية، أو تدهور الحالة المادية، وبعد صراع طويل أو قصير، مرير أو مثير، تمكنوا من الوصول إلى أهدافهم، وتحقيق أمانيهم.

ويحدثنا التاريخ كذلك عن أناس اقتربوا من تحصيل أهدافهم، لكنهم على مرمى حجر منها قرروا التوقف، وتغيير المسار بعد أن أتعبتهم السِّنُونُ، وأرهقتهم الخطوب، فعاشوا على أمل ضيعوه في آخر لحظة.

لكن المؤلف يطالبنا بالتوقف عن استخراج العبر والعظات من تلك القصص، ويحوِّل وجهتنا إلى قصة تشارلز بوكوفسكي التي تحرف معناها في ذهنه، ولم يستطع أن يصل بنا إلى تصور صحيح لما يريده.

لقد عنون فصله بـ: «لا تحاول» وضمَّنه الكثير من الأفكار التي تقود إلى الإلغاء التام للمحاولة، والعيش على هامش الحياة، هذا ما فهمه الكثير من القراء، وهو ما جعلهم يَشُكُّون في القيمة الحقيقية للكتاب، لكن القسم الآخر منهم لا يتصور أن يكون هذا هو المعنى الحقيقي الذي يريده المؤلف، ولذلك يقولون: إنه يريد من القارئ التوقف عن

البحث عن التجارب الإيجابية!!.

وبالعودة إلى المثال الذي ضربه المؤلف ستجد أيها القارئ الكريم الكثير من المغالطات والتحريفات والاستنباطات الخاطئة، وإليك التفصيل:

- يقول المؤلف: إن بوكوفسكي هو آخر شخص يمكن أن تلجأ إليه من أجل نصيحة في حياتك، وهو آخر شخص يمكن أن تصادفه في كتب تطوير الذات.اهـ

لقد كان بوكوفسكي حاملا لصفات كثيرة قبيحة، وفاشلا إلى حد ما في تسيير حياته، لكن حمله لهذه الصفات لا يمنع الاستفادة منه، بل لا يمنعه أن يكون إنسانا عاقلا مفكرا نافعا في جوانب أخرى من الحياة، حتى وإن كانت في تطوير الذات، ورب حامل حكمة أو خبرة إلى من هو أحسن منه حالا، والمثل السائر يقول: خذ الحكمة من أفواه المجانين، وذلك أن بعض المجانين رغم فقدهم الجزئي للعقل لا زالوا يحتفظون بشذرات من الحكمة يلقونها بين فينة وأخرى، ورغم حمل هذا المثل لجانب كبير من المبالغة إلا أنه يعكس قابلية الناس لتقبُّل ما يصدر من المجانين، فضلا عمن هم فوقهم إذا كان ما يصدر منهم كلاما موافقا للعقل والحكمة.

- لم يكن بوكوفسكي فاشلا في المجال الأدبي سوى لفترة استمرت بضع سنوات اعتزل فيها الكتابة بعد أن كسدت أعماله، ولم تلق الرواج الذي كان ينشده، وعلينا في هذا الموضع التفريق بين الفشل في الكتابة والإبداع، وبين الفشل في الوصول إلى الجمهور، فالأولى لها تعلق وثيق بالذات، وأما الثانية فقد لا يكون لها ارتباط بالذات على الإطلاق، وتكون خاضعة للمحيط.

- لقد كان بوكوفسكي مثالا حيا للمحاولة وتكرار المحاولة حتى وصل إلى أكثر مما

كان يحلم به، أما عبارة «لا تحاول» الموجودة على قبره، والتي كثيرا ما كان يقولها في حياته، فلم يحسن المؤلف فهمها، ولا توظيفها، فبوكوفسكي يُجيب بهذه العبارة عن سؤال متعلق بالإبداع، وليس عن آلية النجاح في الحياة، ولا هو يعبر عن فشله فيها.

إنه يجيب عن سؤال طالما طُرح على المبدعين من أناس يريدون أن يصبحوا مثلهم: ما سر كتاباتك؟، إنهم يريدون جوابا ماديا لشيء معنوي لا يمكن تصويره.

لقد اعتقد الناس قديما أن وراء كل شاعر شيطانا يوحي إليه، لقد عجزوا عن تفسير ظاهرة تفجر القريحة فجأة بقصائد طويلة ومعانٍ بديعةٍ بعد أن كانت خامدة طوال الوقت.

وعلى هذا النمط كان جواب بوكوفسكي: لا تحاول فقط انتظر، وإذا لم يحدث شيء فانتظر أكثر، ومثَّل لذلك بحشرة استقرت في أعلى الجدار، فأنت تنتظرها حتى إذا نزلت واقتربت بما يكفي صفعتها أو قتلتها أو تركتها تمرح في الجوار كحيوان أليف.

هذه طريقته في كتابة الشعر، انتظار لحظات الإلهام بدل بذل مجهودات كبيرة كما يفعل كثير من الناس من غير جدوى.

وسواء أعتقدنا أن هذا المبدأ هو لكتابة الشعر فقط أو هو يتجاوزه لباقي مناحي الحياة فإن المؤلف ينقض هذه الفكرة عندما يقرر مبدأ «افعل شيئا ما» فهو هناك يدعوك لأن تفعل أي شيء المهم أن لا تتوقف، وينقل كلاما لروائي كتب أكثر من سبعين رواية كانت طريقته في ذلك أن يجبر نفسه على كتابة مئتي كلمة مهما كانت سيئة وتافهة لأنها ستفتح الشهية للكتابة.

يبدو الوصول إلى القمة صعبا ويحتاج إلى لمسات سحرية، ومع ذلك لا يختلف اثنان في أن التدريب المستمر واختيار الأوقات المناسبة للكتابة، وغيرها من الأسباب، تُحسِّن آداء الناس وترفع فرص نجاحهم، وليس ميلاد الإنسان بقدرات بسيطة، وروح حسية جمالية ضعيفة[1]، سببا كافيا يمنعه من الإبداع.

– لقد استنبط المؤلف من قول بوكوفسكي: «لا تحاول» أنه كان فاشلا، وأنه كان يعرف هذا، وأن نجاحه كان بسبب معرفته بأنه فاشل وقبوله بذلك!!.

لا شك أن هذا الكلام بعيد كل البعد عن الصحة فبوكوفسكي نجح ربما لحمله روحا إبداعية، ولأنه استمر في بناء ذاته طوال فترات تعلمه حتى إذا اكتمل البنيان قاوم الرياح العاتية المتمثلة في سيطرة المال والعلاقات الشخصية على عالم النشر، والمتمثلة كذلك في اختيارات القراء وتوجهاتهم، ولم يكن نجاحه ثمرة هذا الإصرار وحده بل رافق ذلك عند كهولته رهان أحد الناشرين الصاعدين عليه، ولست أعرف القيمة الحقيقية لأعمال بوكوفسكي، ولكني أعلم أن هناك من المبدعين من لم تصادف أعمالهم في بداياتها نجاحا رغم قيمتها العظيمة، وأن فيهم من لم تحظ أعماله بالعناية والاهتمام إلَّا بعد سنوات أو قرون من وفاته، كما حدث مع مقدمة ابن خلدون، وأعلم كذلك أن الكثير من الأعمال التافهة تلقى رواجا بين الناس بضربة حظ أو بهوس عابر، والغرض من هذا الاستطراد التأكيد على كون النجاح في الوصول إلى قلوب الناس غير مرتبط بتطوير الذات وحده.

– ومن هذا المنطلق فإن عدم تحول عادات بوكوفسكي القبيحة بعد نجاحه، وبقائه

(1) أجاب المنفلوطي عندما سئل عن سر كتاباته: إنه استشعار الجمال في كل شيء.اهـ
وهذا ما أعتقده وبالربط بين هذا المعنى وآلية عمل الدماغ التي سنذكرها لاحقا تكتمل الصورة.

في مستنقع الرذيلة ليس فيه ما يدل على أن تطوير الذات ليس سببا للنجاح كما زعم المؤلف، وذلك أن النجاح لم يستلزم تطوير الذات ابتداء فكيف يستلزمها انتهاء؟.

ويضاف إلى ذلك أن تطوير الذات ليس كُلًّا واحدًا يذهب جميعه أو يبقى جميعه، بل قد يطوِّر الإنسان ذاته في مجالات محددة فينجح فيها، ويبقى عاجزا فاشلا في أخرى أو في حياته عموما.

- ثم إن معايير النجاح تختلف عند الناس، فقد ينجح الإنسان عند المؤلف أو عند غيره، وهو في أدنى مستويات الرذيلة لأنه راض عن نفسه ويحقق قيمه، أو لأنه يجمع المال أو يحصل على الشهرة، فما الضابط في النجاح؟.

إن المؤلف يسمي ما وصل إليه بوكوفسكي من شهرة نجاحا!!، بينما يعتقد بوكوفسكي على حسب زعم المؤلف أنه لا زال فاشلا رغم الشهرة التي حصَّلها، فهل نأخذ بمقياس المؤلف أم بمقياس بوكوفسكي؟ وهل سيثبت المؤلف على هذا المقياس أم أنه سيغيره لاحقا؟.

وعودة إلى الموضوع: إذا أراد المؤلف أن يسمع الجزء الآخر من الحقيقة فأقول له: إن النجاح مرهون بالعمل، وكمال العمل يكون بتطوير الذات، والسير بها نحو الأحسن، وقد أحسن المؤلف عندما فصل بين النجاح وتطوير الذات فليسا شيئا واحدا، لكنهما في الغالب متلازمان، فالإنسان الناجح لابد وأن يكون قد مرَّ بمراحل حاول فيها أن يُحسِّن من آدائه، ولا يتم هذا التحسين إلا بأسباب عقلانية يصح أن تُدخل تحت تطوير الذات، وليس المقصود بتطوير الذات أن تسعى لتحسين كل شيء في نفسك، وإنما قد يقتصر المرء

في ذلك على جانب مما ينفعه في المجال الذي يحاول النجاح فيه، ولا يلزم من تطوير الذات أن تكون مُدركًا لما تفعله، أو مصنفا له تحت فن أو علم من العلوم، وقد تفرَّغ بوكوفسكي ثلاثة أسابيع أكمل فيها روايته الأولى مع الناشر الجديد، ولا شك أنه في تلك الأسابيع اتخذ الكثير من القرارات الحاسمة التي تندرج تحت تطوير الذات كالقضاء على العشوائية والتركيز على العمل وغيرهما، فلا يخدعنك أيها القارئ الكريم كلام المؤلف، واحرص على ما ينفعك في حياتك وبعد مماتك.

ثم إن المؤلف بعدها بدأ بالسخرية من الدعوات إلى الإيجابية في تطوير الذات، من خلال محاكمة الدعوات غير الواقعية، ومن خلال الخلط بين السخرية من الدعوة إلى الإيجابية وطرق الوصول إليها.

وما قام به هو أشبه بمحاكمة رجل من خلال النظر في أسوأ ما فيه، والحقيقة أن الدعوة إلى الإيجابية شيء جميل ومحفز، وطرق الوصول إليها متنوعة وغير مقتصرة على ما يثير الشفقة مما هو منتشر اليوم، أو مما حاول المؤلف إظهاره.

يقول المؤلف: إن أثر الدعوات إلى الإيجابية سلبي، فهي تركز على ما نفتقر إليه، وبالتالي فهي تذكرنا دائما بنقائصنا، ومواضع فشلنا، من غير أن تدفعنا إلى التحسن.اهـ

لقد بنى كلامه على جملة كبيرة من المغالطات:

صحيح أن الثري لن يحتاج إلى تذكير نفسه بكونه ثريا، وقد لا يحتاج إلى تعلم ما يُنَمِّي به ماله لكنه يحتاج إلى تذكير نفسه بالقناعة، وعدم الكبر، وغيرها من الصفات التي تقوده إلى الكمال.

صحيح كذلك أن الثقة بالنفس أو وجود قدرات ذاتية حقيقية تُغني عن البحث في

مواضيع تطوير الذات، لكن البحث فيها سيُحسِّن حتما الآداء فهو خلاصة خبرات إنسانية امتدت على مدار عشرات القرون.

انتقل المؤلف بعدها إلى الخلط بين تطوير الذات والإعلانات التلفزيونية ورغبات الشركات، والصحيح هو أن الإعلانات تدعونا في الغالب لأن ننفق أكثر من خلال التأثر بالنماذج المقدمة على الشاشة، أو بالمحيطين بنا، بينما تطوير الذات لا يمر من نفس الطريق ولا يصل إلى نفس الأهداف، فتطوير الذات يرشد إلى القدوة الحسنة، وينهى عن الحسد القاتل، وينتهي بتحقيق السعادة بتحصيل المراد أو دونه، وليس تطوير الذات هو قانون الجذب، ولا هو محصور فيه.

يختم المؤلف هذا المدخل بتوجيه قرائه إلى تقليل الاهتمام بالشيء المفقود بدل البحث عن المزيد منه، وبتقليل الأشياء التي يهتمون بها من خلال وضع ضوابط للاهتمام بأن تكون هذه الأشياء حقيقية هامة آنية.

الدور الجحيمي

يقول المؤلف: في الدور الجحيمي يقلق الإنسان من قلقه من مسألة ما، ويغضب من سرعة غضبه، ويشعر بالذنب لشعوره المتكرر بالذنب من أخطائه، ويشعر بمزيد من الحزن والوحدة لشعوره بأنه حزين ووحيد، ويستمر في هذه الحلقة المفرغة دون أن يجد لها مخرجا.

لكن هذا الدور الجحيمي هو دور وهمي لا يوجد إلا في مخيلة المؤلف، فنحن نتألم ونحزن ونقلق بسبب المشاكل التي نواجهها أو نرتكبها في حياتنا، ومنا من يقابل هذه

المشاكل بتصحيح الأخطاء والتحرر منها، ومنا من يقابلها بالغرق فيها، ولا أدري هل رأيتم سابقا من يغضب من غضبه، أم أني الوحيد الذي يرى الناس يتألمون لغضبهم السابق ولا يغضبون لغضبهم؟! ثم تأمل هذه المغالطة: رجل غضب من غضبه وانتهى الأمر، فأين الدور في ذلك؟!.

يشرع المؤلف بعدها في بيان سبب وجود هذا الدور الجحيمي إنه ببساطة الجيل الذي خلقته مواقع التواصل والذي يعتبر الخوف والقلق والشعور بالذنب من الأمور السيئة!!.

تستدعي هذه الأفعال التي اعتبرناها سيئة الدور الجحيمي في نفوسنا، وبدل أن نصرف ذهننا عن ذلك كما كان يفعل أجدادنا تجدنا اليوم محاصرين بمئات الصور عن نجاحات الآخرين وفشلنا، وهو ما يجعلنا نبغض أنفسنا، ويُعقِّد عملية تحررنا من هذه الدائرة الفولاذية.

والحل عنده عدم الاكتراث، وتقبُّل الشعور السيء وعدم الضجر منه، وتقبل كون العالم سيئا، وأنه سيبقى سيئا كما كان على الدوام.

ويقرر بعدها أن مشكلة العالم هي مشكلة وجودية روحية، وبدل أن يبحث لها عن حلول أخلاقية دينية، نجده يؤصِّل لقتل وازع الخير في قلوب الناس، ويرشدهم إلى ترك الشعور بالذنب وعدم الاكتراث به، وما ذهب إليه هو ممارسة موجودة في الواقع عند صنف من الناس جبلوا على فعل الشر، ولا تحدثهم نفوسهم بالامتناع عن فعله فيبقون على ما هم فيه من المعاصي والقبائح إلى أن يشاء الله، ولا أشك لحظة في كون المؤلف واحدا منهم من خلال القصص التي بثها عن نفسه في كتابه، وأن عمله هذا هو تأصيل

وإضفاء للشرعية على أفعاله.

وقد صدق المؤلف في ربط مواقع التواصل بحالة البؤس النفسية والروحية التي نعيشها، وهذا في الحقيقة سر لم يعد يخفى بعد كثرة الدراسات المنبهة والمحذرة من أخطار هذه المواقع، وقد وضعت في هذا المجال رسالة أحاول من خلالها مدَّ يد العون للغارقين في هذه المستنقعات سميتها: «كيف نحمي أنفسنا وأبناءنا من مواقع التواصل؟».

ولا أود أن أمر على هذا الموضع دون التنبيه على محاولة المؤلف إيهام القارئ أن عدم تقبل الأشياء السلبية عادة حديثة ولدت أو نمت مع مواقع التواصل، بل هي عادة إنسانية قديمة جدا تحدث عنها الأنبياء والفلاسفة والمصلحون والشعراء وطار بخبرها الركبان.

ينتقل المؤلف بعدها إلى الطعن في الطرق المعهودة من تنمية الذات وخصوصا عبارة «كيف تكون سعيدا؟» ويطرح بدلا من ذلك فكرة تقول: إن الرغبة في التجربة الإيجابية هي تجربة سلبية وتقبُّل التجربة السلبية تجربة إيجابية.

وهذه الفكرة يدور عليها الكتاب، وقد ذكرها المؤلف سابقا وسيعيدها لاحقا بصيغ مختلفة، وهذا التكرار يعكس قلة الفوائد والأفكار الموجودة في الكتاب، وينقص من قيمته.

نعم، إنَّ بحثنا عن السعادة يُذكِّرنا دائما بأننا لا نملكها، وبحثنا عن سعادة أكبر يذكرنا بأننا نحتاج المزيد منها، هذه معضلة ينبغي إيجاد الحلول لها لكن قبل ذلك يجب أن نقرأها في إطارها العام ولا نعزلها عنه.

إن تحقيق الأهداف الكلية أو الجزئية يمنح النفوس الراحة، والسعادة، والثقة، وغيرها من الدفقات الإيجابية، وهذا وحده يستحق منا العناء وبذل الجهد ومواجهة الصعاب.

إن الحل لا يكمن في عدم اهتمامنا بتجاربنا السابقة، وإنما في التوسط والاعتدال، في خلق توازن بين الإفراط في الشعور بفقدان الشيء، والإفراط في إهمال الشعور به، في خلق التوازن بين الإفراط في طلب الأشياء، وفي ترك طلبها وتوقع مجيئها، وهو ما تختصره عبارة: «وأجملوا في الطلب».

إن الدين وخلاصة التجارب الإنسانية قد رسما لنا طريقا واضحا نسير عليه للوصول إلى السعادة، ولكن بعض المتنطعين الغربيين يحاولون القفز وتجاوز هذه التجارب فيظهر عجزهم وتقصيرهم، إن الدين يضع لنا فاصلا بين الأقدار الموجبة للرضى والقبول، وبين النقائص والعيوب الموجبة للشعور بالذنب والسعي للتغيير، ولكن المؤلف لا يفعل.

يستدل المؤلف بقول ألبير كامو: «لن تكون سعيدا أبدا إذا واصلت البحث عما تتكون منه السعادة، لن تعيش حياتك أبدا إذا كنت تبحث عن معنى للحياة، فاترك التفكير في كل ذلك، تمتع بحياتك وحاول دائما أن تكون سعيدا».

ربما لن تلاحظ أيها القارئ أن كلام كامو ينتهي عند قوله «معنى للحياة»، وأن بقية الكلام هي زيادة مني تؤكد خطأ المؤلف عندما استخلص من كلام كامو أنه يرشدنا إلى عدم المحاولة، وما يؤكد خطأ المؤلف في فهمه هو أن كامو ولد على بعد 40 كيلومترا من المكان الذي ولدت فيه، وهو ما يمنحني الأفضلية في توجيه كلامه حيث أشاء!!.

وعودة إلى الموضوع فإن كامو مصيب فيما قاله، وقد كنت أكرر هذه الفكرة دائما دون أن أقرأها له، وذلك أني رأيت كثيرا من كتب الاعتقاد القديمة قد مُلئت بكل شيء إلا ما يمنحك الإيمان. إن النقاشات الكثيرة والطويلة عن الذات الإلهية قد تحمي العقيدة من التحريف لكنها تجعل الذات شيئا ماديا خاضعا للأخذ والرد، وتنقص من قداستها، وهو ما يضرب جانبا كبيرا مما وضعت من أجله هذه الكتب، وخلاصة القول: لن تصل إلى الإيمان ما دمت تبحث عن حقيقته لا عنه.

يطرح المؤلف بعدها فكرة أقل ما يقال عنها أنها خرافية جوابا عن الاستشكال القائل: إن عدم اهتمامنا بالشيء يجعلنا لا نصل إليه، قال: تتحسن بعض الأشياء عندما يقل اهتمامنا بها!!.

نعم تتحسن بعض الأشياء **بعدما** يقل اهتمامنا بها، وهذا التحسن إما أن يكون لأسباب عادية فلا حجة للمؤلف فيه، وإما أن يكون غير عادي، وهو ما يقودنا إلى قاعدة خرافية أو فوق طبيعية تقول: إن ترك الاهتمام بالشيء يؤثر فيه!! بل ويؤثر فيه بالإيجاب!!، فماذا ترك المؤلف لمهرجي تطوير الذات؟! وما الفرق بين القانون التراجعي وقانون الجذب؟!.

ما أعجب حال المؤلف في هذا الموقف وهو يحشر نفسه في زاوية ضيقة، محاولا القفز على قاعدة عامة يصح أن يطلق عليها فطرية لالتصاقها بالسببية في الواقع وفي نظر الناس.

بعد وصولي إلى هذا الموضع من الكتاب صار يقينا لدي أنه لا يمكنني تتبع عثرات المؤلف في كل ما يقوله، خصوصا وقد اجتمع مع تشتت أفكاره الأمثلة الهزيلة والمنطق

الأعوج، ولذلك قررت ترك التعليق على الكثير من الأخطاء رحمة بي وبالقراء الكرام الباحثين عن الفائدة.

يستمر المؤلف في بيان القانون التراجعي قائلا: إن عدم الاهتمام يؤدي مفعولا عكسيا، فملاحقة الإيجابي تولِّد نتيجة سلبية، وملاحقة السلبي تولِّد نتيجة إيجابية، ومثَّل لذلك بممارسة الرياضات المرهقة (سلبي) للحصول على جسم أفضل (إيجابي)، متناسيا وجود الكثير من الأعمال السلبية التي تؤدي إلى نتيجة سلبية، والكثير من النتائج الإيجابية التي نصل إليها بالأعمال الممتعة المشوقة الإيجابية.

ومما مثل به كذلك الإخفاقات التي تؤدي بنا إلى فهم أفضل لما هو ضروري للنجاح، لكنه نسي كذلك أننا قد نفهم من نجاحاتنا، وقد نصل من نجاحاتنا إلى نجاحات أكبر، وأن الإخفاقات تصنع في العادة الإنسان الفاشل، ونسي كذلك أن إخفاقاتنا قد لا تعلمنا شيئا لأنها ببساطة ناتجة عن أشياء نعرفها مسبقا أو قد لا تعلمنا شيئا لعدم قابليتنا للتعلم أو لعدم قدرتنا على الاستنباط أو غير ذلك من الموانع.

ينتقل المؤلف إلى فكرة أخرى تقول: «كل ما له قيمة في الحياة يجري كسبه من خلال التغلب على التجارب السلبية التي ترافقه».

يظن أنه بهذا يتمكن من النجاة من الاستشكالات المحيطة به، كيف نصل إلى أهدافنا دون أن نسعى إليها؟!.

والجواب الذي ذكره هو: يمكنك الوصول إليها من خلال تجاهلها، ولنسم ما تتكبده في سبيلها والعوائق التي تكافح من أجل إبعادها عن هدفك تجارب سلبية يجب التخلص منها.اهـ

فيا لها من عبقرية عندما تغير اسم الشيء بحثا عن تغيير لمعناه!! وتزداد العبقرية عندما يغالط عقله وعقل قرائه بالانتقال إلى وجوب مواجهة الأشياء السلبية، وعدم إخفائها مغيرا معنى السلبية دون أن يُشعر القراء، فالسلبية هنا هي الأشياء السلبية التي لا نحب أن نواجه أنفسنا بها كالفشل، أو التي لا نتقبل العيش معها كالألم، وقد تتمدد إلى كل شيء قبيح فينا.

يكرر المؤلف بعدها الكلام مرة أخرى ضاربا الأمثلة لأشياء لم نُبد لها اهتماما لكننا حققنا نتائج مبهرة فيها.

والجواب عن ذلك هو: إن من السخافات الكثيرة الموجودة في كتب تطوير الذات إقامة الأحكام والنظريات على القصص والحكايات: عرفت رجلا حصل على أموال طائلة من بيع الفول السوداني على قارعة الطريق، بإمكانك أن تصبح ثريا من الأعمال الصغيرة أو الحقيرة!!.

لكن السؤال العلمي هنا والذي يغيب عن ذهن مطوري الذهن: كم رجلا أثرى من عمل حقير؟! إذا كان الجواب يمكن تمثيله بأصابع اليدين فالمطور أحمق، وإذا ارتقى الجواب لتمثيله بنسبة مئوية صحيحة مهما صغرت، فهذا حقا إنجاز رائع!!.

لكن القارئ المسكين متلهف للانتقال بين القصص والأحداث، ولا تهمه الأرقام كثيرا.

يقول المؤلف: بعت معظم أملاكي وانتقلت للعيش في أمريكا الجنوبية ولم أكن أبالي بشيء، فقط ذهبت وفعلت ذلك.

يا له من أحمق!! نعم الحياة الدنيا لا تساوي ما نصرفه عليها من همٍّ وغمٍّ، لكن عدم التخطيط لها يجعلها أصعب.

لا يمكنني أن أصدق هذا المعتوه الذي رمى القدر في طريقه النجاح، حكاياته أشبه عندي بحكايات ألف ليلة وليلة، هو معتوه وفوق ذلك لا يبالي.

ضوابط اللامبالاة

يعود المؤلف إلى رشده ويخبرنا بأن اللامبالاة ليست مطلقة، وأن «اللامبالون المطلقون» هم أناس يبالغون في إعطاء الأهمية للأشياء، ويخافون من ردة فعل الناس على تصرفاتهم، ولذلك يختارون اللامبالاة أو عدم فعل أي شيء.اهـ

لا أتصور وجود شريحة من الناس تحمل هذه الصفة، بل لم يسبق لي أن رأيت أفرادا يتميزون بمثل ذلك، فهل يوجد مثلا إنسان مهتم للغاية برأي الناس في شَعره ثم لا يكترث بغسله ولا بتسريحه؟!.

ولتوضيح الفرق بين اللامبالاة المرضية والمبالاة الذكية يضع المؤلف هذه الضوابط والتوضيحات الثلاثة:

1- أن تهتم على النحو الذي يريحك

خلاصة كلامه في هذه النقطة: أن نهتم بالأمور العظيمة دون الصغيرة، وأن لا نهتم بردة فعل الناس أمام قراراتنا الصائبة.

الحقيقة أن المؤلف في هذا الموضع يحاول إعطاء تبريرات لنفسه عندما يبالغ في ردة الفعل اتجاه أشياء معينة من خلال عدم الاكتراث لأقوال الناس: إنه سيدمر حياة المحتالة على أمه إذا اضطر إلى ذلك، ولن يبالي بكون ذلك تجاوزا في العرف، والصواب في ديننا

أن العرف مُراعى حيث لم يخالف الشرع، ولعل الصواب عند بقية الأمم أن العرف مراعى ما لم يخالف العقل الصريح الذي بلا شك ليس عقل المؤلف.

الشيء الإيجابي في هذه النقطة هو قول المؤلف: إن عدم الاهتمام لا يعني عدم الاهتمام بأي شيء، وإنما عدم الاهتمام بالمصاعب التي سيجدها في طريقه!!اهـ

أرأيتم أغرب من هذا إن الهالة الضخمة التي يضعها المؤلف على أفكاره اضمحلت في أول تحد واجهته، أليس هذا هو عين ما يطرحه العقلاء؟! إذا اخترت طريقك فلا تصرفُكَ عنه البُنيَّات ولا المصاعب.

إن المؤلف هنا يحدثنا عن الاهتمام ببعض الأشياء، والمبالغة في ذلك، والتمسك بالقيم الذاتية من دون اعتبار لنظرة الناس إلينا.

لكنه في آخر الكتاب سيقرر مبدأ آخر يجعلك مخطئا دائما، يجعلك تنظر إلى تصرفاتك دائما نظرة ريبة.

سنواصل قراءتنا للكتاب مطالبين المؤلف بوضع ضوابط لمعرفة المهم والتافه، وبيان سبب سخريته من اختيارات الناس وقيمهم، ولماذا كان يحدثنا في بداية الكتاب عن عدم الجري وراء الأشياء الإيجابية؟!.

والجواب الأول الذي تجده هو: إن المهم ما تحبه أنت أو ما تجد له معنى في الحياة، لكن السؤال الذي لن تجد له جوابا هو: لماذا يسخر من اختيارات الناس ويضرب بعض كلامه ببعض؟ أتراه يفعل ذلك لأنه لا يأبه بامتعاض القارئ؟.

إذا اختار بعض الناس احترام رأي من يحيط بهم ووجدوا السعادة في ذلك، فلماذا

يجبرهم المؤلف على أن لا يتجاوزوا في اهتمامهم رأي العائلة والأصدقاء؟!.

2- اصرف نفسك عن المبالاة بالمصاعب عن طريق المبالاة بأشياء أكثر أهمية منها

يقول المؤلف: إذا كنت تكرر منح الاهتمام المبالغ فيه لأشياء ثانوية تسبب لك الإزعاج، فمن المحتمل كثيرا أنك تعيش حياة فقيرة ليس فيها ما يستحق اهتماما حقيقيا.

لست أدري على أي دراسة اعتمد المؤلف في ضبط الكثرة والقلة، ولكن الصنفين موجودان فهناك من يهتم بالسفاسف، ويجمع إلى ذلك الضِّعة، وقِلَّة الهمة، وخلو حياته من أهداف، وهناك من يهتم بعظائم الأمور، وله في الحياة أهداف يعجز عن السير في طلبها أصحاب الهمم العالية، ومع ذلك تجده يتأثر بسفاسف الأمور ويشغل وقته بها، وهذا مرتبط بطبيعة الإنسان، ومنهجه في الحياة، فهناك من الناس مثلا من يحب أن تكون حياته منظمة، كل شيء موضوع في مكانه، الملابس في مكانها، والكتب في مكانها، والأحذية موضوعة باتساق في الدولاب أو أمام الباب، وكذا الأمر في جميع نواحي الحياة، وجمع مع ذلك الهمة العالية والنجاحات الباهرة، لكنه عندما يدخل إلى مكان تزعجه فوضاه، فإنه لا يخفي تذمره وربما دخل في مهاترات كلامية مع صاحب المكان، بل ربما كان من الذين يعلقون الأوراق في سكنهم الجامعي ليُذكروا الطلبة بأن «النظام أساس الحياة» وأن الفوضى التي يعيشونها هي سبب تخلفنا.

فالشاهد هنا أن لا ترابط بين الاهتمام بالسفاسف وعدم وجود أشياء مهمة في حياتنا، لكن الاهتمام بالسفاسف على ما فيه من الفوائد يجلب الأمراض المستعصية، ويشتت الذهن ويشغله عن النظر في جواهر الأشياء.

3- أنت تختار دائما ما تهتم به

يعني ذلك أننا أحرار في اختيار اهتماماتنا، لكن دائرة ما نهتم به تتغير؛ تكون واسعة عند الصغر وتبدأ في التقلص كلما نضجنا، لنتحرر منها أواسط العمر بعد أن نعرف أنفسنا ونتقبلها.

تكلم المؤلف عما يؤثر في تغير ما نهتم به، وأغفل الحديث عن أهم الجوانب وهي البيئة التي نعيش فيها، فهي التي تفرض علينا أكثر الأشياء، إننا أحرار في اختيار ما نهتم به لكن اختيارنا خاضع لبيئتنا، ستكون محافظا في المجتمع المحافظ، وسترمي القمامة في مكانها بمجرد انتقالك من العالم الثالث إلى العالم الأول، وستقاتل من أجل ملعقة إذا كانت الملعقة شيئا ذا قيمة في مجتمع مغلق، وسيتغير كل ما حققته من انتصارات بالتقدم في العمر أو بمجرد انتقالك من مكان ذي ثقافة معينة إلى آخر يختلف عنه.

الهدف من الكتاب

بعد أن أدخلَنا المؤلف صحراء شاسعة لا معالم فيها، وعلم أننا تائهون هَالِكون لا محالة، أراد أن يوضِّح تحت هذا العنوان الغاية من كتابه، لكن كالعادة ذكر كلاما يجعل الحليم حيرانا، فغابت بعض معانيه عن المترجم نفسه، ولذلك سأضعها في عبارات محددة لعل الصورة تتضح:

- مساعدة القارئ في تقليل الأشياء التي يهتم بها، من خلال تقبل سوء الأمور أحيانا أو تقبل النقائص لتجنب الدور الجحيمي.

- لا يهدف هذا الكتاب إلى تخليص القارئ من مشاكله لكنه يجعلها أفضل قليلا، لا

يهدف إلى أن يجعلك عظيما، أو أن يخلصك من آلامك إنما يجعل آلامك أداة في يدك، سيجعلك تضحك من دموعك وأنت تذرفها.

لن يعلمك كيف تكسب المال أو تحقق الإنجازات وإنما يعلمك طريقة تقبل الخسارة.

كان هذا هدف المؤلف من كتابه، أما الهدف من الرد فيتضح من خلال ما يأتي:

انضممت إلى العديد من المجموعات المهتمة بالمطالعة واقتناء الكتب، فوجدت هوسا كبيرا بالروايات وبعض كتب تطوير الذات، ورأيت اهتماما مبالغا فيه بهذا الكتاب، فأردت أن أنتفع بما فيه كما ينتفع غيري، لكن صدمتي كانت كبيرة، إنه شيء هلامي أو فوضى كبيرة تحتاج إلى عمل شاق لتنظيمها، وفهمها، وفوق ذلك هي فقيرة من المعاني والأفكار الجيدة، ومنبثقة من أقبح الأماكن في العالم الغربي حيث الخمر والفجور والمواعدات، فارتأيت أن أستخرج تلك الأفكار وأُبيِّن معانيها، وأحذف مواطن الفجور فيها، وأصلحها بالنقد البناء، وبالإضافات المكملة، لتكون عوضا للقارئ العربي عن الكتاب الأصلي.

لقد سار المؤلف على النهج الذي يدعو إليه عندما لم يحاول تحسين ألفاظه، وأكثر من العبارات السوقية النابية، فزاد كتابه الفقير من الأفكار سقوطا، وقد خلت الترجمة العربية من جزء كبير من تلك الألفاظ والعبارات وبقي الكثير.

إنني أتألم عندما أرى قارئا وضع عقله جانبا، وارتمى في أحضان الكتاب يصدِّق كل ما جاء فيه، ويحاول أن يجد أحداثا في حياته مشابهة لما يضربه المؤلف من أمثلة رغم ندرة هذه الأحداث، ولا ينتبه إلى أن حياته مليئة بالأمثلة التي تُناقض ما ذهب إليه المؤلف.

إنني أحزن عندما أجد قارئا يقول: صحيح لقد كنت أحمل كرها شديدا للسنوات التي كنت أحرص وأقلق فيها على درجة هنا ودرجة هناك، ووجدت تفسيرا لذلك في قول المؤلف: هل لاحظت في يوم من الأيام أن إنجازك في أمر من الأمور يتحسن عندما يقل اهتمامك به وقلقك عليه؟.اهـ

فأي علاقة بين الأمرين؟! وأي عقلانية في كلام المؤلف؟!.

الفصل الثاني: السعادة ليست مشكلة

يقول المؤلف: إن السعادة مشكلة، ولبيان ذلك نقل المؤلف قصة بوذا الأسطورية، والتي فيها أن أباه كان ملكا وفَّرَ لابنه جميع أسباب السعادة، لكن الابن لم يجدها في الجاه والمال فجرَّب الفقر والحاجة، فلم يجدها فيهما كذلك، فجلس يتأمل تسعة وأربعين يوما حتى وصل إلى الحقيقة التي صاغها في عبارات فلسفية منها ما يتعلق بمبحثنا: «الألم والخسارة لا مفر منهما، وعلينا التوقف عن مقاومتهما».

لقد حاول المؤلف أن يوهمنا أن بوذا عاش أول حياته بلا ألم، وأن أباه جعل هدفه ألا يشعر ابنه بالمعاناة، يا لها من فكرة سخيفة، ننقلها من عالم الخرافة إلى عالم الحقيقة، أو ربما نستخرجها بتكلف من عالم الخرافة، كيف يمكن للإنسان أن يعيش بلا معاناة؟! إنها خرافة كبيرة ضلل بها الكاتب قُرَّاءه، إننا لا نعيش وحدنا في هذا العالم، ولذلك ستصيبنا طعناته في أي مكان كنا فيه، ومهما بلغت درجة القوة والسلطة التي نمتلكها، لقد توفيت أم بوذا وهو صغير، وهذا وحده كفيل بأن يجعل الألم جزءا دائما من حياته.

يقول المؤلف بعدها: إن مشكلتنا هو إيماننا أن السعادة هي معادلة رياضية قابلة للحل إذا كان س يساوي رقما معينا فإن ع سيشعر بالسعادة.

إن السخط وعدم القناعة جزءان أصيلان من الطبيعة البشرية، وسنرى أنهما مكونان ضروريان لخلق سعادة مستقرة، وإذا كان بوذا برهن على ذلك بطريقة فلسفية، فإن المؤلف سيحاول البرهنة عليها بطريقة بيولوجية.

خيبة الأمل التي يحملها باندا الخيبة

من المواضع الخيالية الجميلة في الكتاب هذا الموضع الذي يصور فيه المؤلف بطلا خارقا على شكل باندا يتجول بين الأزقة ويطرق أبواب الناس ليخبرهم الحقائق القاسية عن أنفسهم، الحقائق التي يحتاجون إلى سماعها لكن لا يريدون قبولها، إن هذه الحقائق الصادمة ستجعلنا أكثر قوة.اهـ

إن هذا الباندا يعبر عن صوت الحقيقة الذي في داخلنا، والذي كثيرا ما خنقته المصالح الشخصية، أو الأنا المستعلية أو أي اسم أو رسم آخر.

يظهر هذا الباندا في حياتنا بين فينة وأخرى على لسان شخص حاقد أو ناصح أو ناقد، لكننا لا نحب أن نسمعه على كل حال إلا في المرات النادرة التي ينطق فيها على لسان أنفسنا اللوامة.

ينتقل المؤلف بعدها إلى الحديث عن الدور الإيجابي لعدم القناعة في حياة البشر، فالإنسان مجبول على عدم القناعة بما بين يديه أو بما حقق، وهو ينظر بعين الإعجاب إلى ما لا يملك، وهو ما يدفعه إلى بذل مزيد من الجهد للحصول عليه ويصل به إلى التغيير والتطور.

ولا يختلف المؤلف في هذا عن غيره من الكتاب والمفكرين الذين دائما ما يحصرون الأسباب فيما يقوي نظرياتهم أو ينبع من تخصصاتهم، ولو طرحنا السؤال بشكل مختلف على مجموعة من الناس من ذوي الاختصاصات المختلفة عن سبب بقاء وتطور الإنسان لوجدت إجابات كثيرة ربما كان هذا آخرها، أو ربما لن تر هذا السبب على القائمة لكثرة

الأسباب وتقدم الأهم منها.

يتحدث المؤلف عن عدم القناعة وعدم الأمان الذي يؤدي إلى العمل أو إلى طلب المزيد، ومن ثمة إلى تطور الإنسان، لكن الحقيقة هي أن الاستقرار في الغالب هو الذي يجلب التطور، وليس الانتقال بين الأحوال، ومن تأمل تاريخ الإنسان قديما وحديثا أدرك أن الحضارات لم تبن إلا على ضفاف الأمن.

ثم يُتبع المؤلف ذلك بالحديث عن فوائد الألم البيولوجية، فالألم الذي تسببه المستقبلات الحسية لجلودنا عندما تحتك بما يضرنا هو الألم الذي يحمي حياتنا، وإذا تحدثنا عن الألم الجسدي فكذلك الأمر بالنسبة للألم النفسي، وكما يعلمنا الألم الجسدي عدم الاصطدام بالمطبات فكذلك الألم النفسي يعلمنا عدم الوقوع في نفس الأخطاء.

ماذا يريد المؤلف أن يقول؟.

يريد أن يقول: إن الألم نافع أحيانا، وبخسارتنا له سنخسر اتصالنا بواقع العالم من حولنا.

المغالطة الواقعة في كلامه هو أن الإنسان يتعلم من تجاربه وليس من آلامه، ويتعلم من محيطه أضعاف أضعاف ما يتعلم من تجاربه، فلا يحتاج المرء أن يجابه حيوانا مفترسا حتى يدرك خطره، ولو كانت الآلام هي المصدر الوحيد للمعرفة لسايرناه في ما ادعاه، ولكن الآلام جزء بسيط جدا من التجارب، نتذكرها لأنها تجارب مكتوبة بالدم لا لأننا تعلمنا منها.

المغالطة الثانية هي أنه ذكر إحدى وظائف أو فوائد الألم الجلدي ثم عممه على كل

ألم جسدي دون أن يعلمنا بهذه القفزة، ثم ذكر أن أدمغتنا تتعامل مع الألم النفسي كما تتعامل مع الألم الجسدي، ثم قفز قفزة أخرى دون أن يعلمنا كذلك ليستنتج في الأخير أن وظيفة الألم النفسي كوظيفة الألم الجسدي.

يا له من إنسان مغالط!! بإمكانه أن يقنع الناس أنهم يتمتعون بقضاء عطلة نهاية الأسبوع على ضفة نهر جار، بينما هم عطشى تائهون في صحرائه المحرقة.

يحاول المؤلف بعدها أن يقنعنا بأن جميع الناس يعانون من المشاكل، الأغنياء منهم والفقراء، وكما أن للمتشردين مشاكل مالية فإن لأغنى أغنياء العالم مشاكل مالية أيضا لكن مشكلات الغني أفضل من مشكلات المتشرد.

لقد هممت للحظة أن أقتنع بما يقوله المؤلف: إن الأغنياء يعانون كما يعاني الفقراء، والناس في المعاناة سواء، لكن هل تقول الدراسات ذلك؟.

للأسف هي لا تقول ذلك، فالأغنياء أكثر رضا عن حياتهم من الفقراء، ولذلك يوظفون أوقات فراغهم في أعمال إيجابية، بينما الفقراء يوظفونها في أعمال سلبية كمشاهدة التلفاز أو عدم القيام بشيء، الأغنياء يمارسون الرياضة وينامون وقتا كافيا ويستيقظون مبكرا، إنهم يعيشون الحياة التي نحلم بها.

نعم، للأغنياء مشاكل، لكن مشاكلهم تختلف عن مشاكلنا في النوع والكثرة.

إن مشكلات الفقير المادية لا تنتهي، بينما مشكلات الغني المادية غير موجودة، أليس جميلا حقا أن تعيش حياة بلا مشكلات مادية؟.

لا تحكي لي قصة عن غني بائس هنا أو هناك، أو عن سفيه أنفق ماله في القمار، أو عن طبقة من الناس ربحت في اليانصيب ولم تدر ما تفعل بالمال الكثير الذي بحوزتها،

أخبرني عن عموم الأغنياء وما تقوله الدراسات.

رَحَلَ باندا الخيبة وترك المؤلف وحيدا، من الجيد أن خط الأفق ابتلعه، ولولا ذلك لكان الآن يصب المزيد من الأفكار المخيبة في عقل المؤلف.

السعادة تأتي من حل المشكلات

يقول المؤلف إن المشكلات ثابتة في الحياة، وعندما تحاول حل مشكلة فأنت تخلق مشاكل جديدة، ومثَّل لذلك بممارسة الرياضة، فأنت تحل مشاكلك الصحية لكنك في المقابل تخلق مشاكل جديدة من قبيل تفريغ الوقت للممارسة، والاستحمام بعدها، والتعب أثناءها. المشاكل ببساطة لا تتوقف وإنما تتغير أو تترقى.

كلام المؤلف في هذا الموضع عام ويحتاج إلى تأمل فيما يريد البناء عليه قبل أن نحكم عليه، لكن مع ذلك يمكننا أن نتطرق إلى بعض النقاط الهامشية ونحن نتراشق أطراف الحديث في قاعة الانتظار: إن ما يطلق عليه مشكلات في مثل هذا الموضع لا ينطبق على مفهوم المشكلات في أذهان الناس، وإنما هو أقرب إلى التكاليف، فالتكاليف هي كل عمل يحتاج إلى جهد أو يجلب مشقة، أما المشكلة فهي تحمل بين طياتها صعوبة تحتاج إلى حل، وعلى هذا فإن حل مشكلة لا يكون في الغالب إلا بمشقة وتكاليف.

يدخل بعدها المؤلف في مغالطة كبيرة، فيقول: «السعادة تأتي من حل المشاكل» ثم يتحمس فيرفع سقف جرأته: «لنصل إلى السعادة نحتاج إلى مشاكل لنحلها».

ربما هو يفضفض أو يهذي ولا يهمه أي وقع لكلامه في سمع وقلب متلقيه، لكن على متلقيه أن يكون أكثر حرصا وحذرا في بحثه عن المتعة والمنفعة.

لا يدري المؤلف المسكين أن المُسِنَّ الذي يقف أمام الحاسب الآلي ينتظر راتب تقاعده سيشعر بالسعادة عندما تلامس يداه الراتب، وأن أي مشكلة في الحاسب ستجعله يتألم، فإذا ارتفعت المشكلة وزالت عادت له سعادته، ومثل هذا يحدث مع الأناس الأسوياء في جميع أعمالهم، فنحن في سعادة ما حصلنا على ما نريد، فإذا دخلت المشاكل أفسدت علينا سعادتنا، ولا تكاد السعادة تعود حتى ترتفع المشاكل، ويسهل التمثيل بغير هذا أو بنقيضه كما فعل المؤلف لكن الكلام السليم يُبنى على الغالب.

يواصل المؤلف كلامه عن السعادة واصفا إياها بأنها عمل، وأنها ليست كشفا سحريا تتلقاه من مقال في مدونة أو عن طريق معلم أو مرشد روحي، ويزداد فظاظة عندما يُوَسِّع مفهوم المشاكل فيُدخل فيه الرغبات، فأنت عندما تحب أن تأكل طعاما جيدا قد وقعت في مشكلة وعليك حلها، إنه يعود بنا إلى عصور التاريخ الأولى عندما كان المصطلح الواحد يجمع معاني متعددة، ليست مشكلته الآن البحث عن السعادة، وإنما التعلم ليضبط مصطلحاته.

الحقيقة أن السعادة شيء كامن في القلب لا يحتاج إلى عمل، وإنما هو مرتبط بالإرادات فكلما تَحقق ما تريده حقيقة شعرت بالسعادة، وعلى هذا فإن السعادة مرتبطة بالتعلم ارتباطا ضمنيا، وكما أن هذا الكتاب يقلل آلامنا بتقليل ما نهتم به (اللامبالاة)، فإن غيره من الكتب يقلل آلامنا بتقليل ما نهتم له (نحزن له)، ويرفع سعادتنا بتبصيرنا بحقيقة الحياة الدنيا وملذاتها، وإرشادنا إلى السعادة الدائمة الأبدية، أو بصيغة أوضح بمفاهيم عصرنا إنها تضبط إراداتنا وترتب أولوياتنا وبالتالي تؤثر في سعادتنا وفي درجتها، وإذا تقرر ذلك فإن هذه الضوابط أو القيم يمكن أن نتلقاها من تجارب الحياة

كما نتلقاها من المعلمين المغمورين ومن الكتب الصفراء، والمقالات التائهة على الشبكة.

يصور المؤلف المسائل بطريقة بسيطة ساذجة: حُلَّ المشاكل وستشعر بالسعادة، لا أدري أي سعادة ستجدها بعد أن تنقطع علاقتك مع عزيز إثر خلاف لفظي لأنك أصغيت لصوت المؤلف الذي يدعوك إلى انتهاج منهج واحد هو مواجهة المشاكل بدل التعامل معها بحكمة وإعطاء كل مسألة حكمها؟!.

إن مجابهة المشاكل أمر يقدر عليه كثير من الناس، وخصوصا من كان وجهه مثل قفاه، أو كان لا يعيش إلا في المياه العكرة، ولا يرضى بالخروج من مشكلة حتى يلج في أخرى، وليست الحكمة في مجابهة المشاكل ولا في تركها، وإنما الحكمة في إعطاء كل مشكلة حقها، والتعامل معها بالطريقة الأنجع.

يقول المؤلف: إن بعض الناس يتعامل مع المشاكل بطريقة تجعلها معقدة، إنهم ينكرون وجودها ويفرون من واقعهم باستمرار، أو يثبتون وجودها لكنهم يلقون باللائمة على الآخرين أو على ظروفهم أو أي شيء آخر غير أنفسهم.اهـ

نعم هذا الصنف من الناس موجود، ولعلهم الصنف الأكثر انتفاعا بقراءة الكتاب، وبالتطبيق العملي لما جاء فيه، إنهم أناس لا يحسنون قراءة واقعهم، ولذلك يبقون في أماكنهم ولا يتقدمون إلى الأمام خطوة، بإمكانهم الآن أن يجربوا إلقاء اللائمة على أنفسهم، وأن ينظروا إلى حياتهم كيف ستتغير تغيرا جذريا.

العواطف مبالغ في تقديرها

هذا المبحث من أضعف المباحث في الكتاب لا تكاد تجد فيه شيئا ذا قيمة:

يقول المؤلف: إن العواطف والانفعالات ليست سوى أدوات تساعدنا في العيش، وإنها مجرد آليات ترجح الصحيح والخطأ، إنها مجرد إشارات على الطريق ولكن الناس يثقون بها ويعتمدون عليها اعتمادا مطلقا.

المشاعر هي إرشادات بيولوجية عصبية يطلقها الجسم قد تخطئ وقد تصيب، كبتها يؤدي إلى عدم القدرة على حل المشاكل، والإفراط في اتباعها واتباع الانفعالات يؤدي دائما إلى الفشل.

إذا وجدت نفسك لازلت تشعر بالانزعاج لحادثة قديمة ذلك لأن دماغك يعتقد أن هناك مشكلة لم تحل بعد، وأن عليك أن تفعل شيئا.

تعلم كيف تطوع أحلامك لخدمة أهدافك[1]

عنوان جميل كعناوين تطوير الذات البراقة، لعل جماله نابع من ارتباطه بالأحلام، كم هو جميل أن نحلم بتحقيق أهدافنا، ونشعر بالسعادة كما لو أننا قد حققنا ذلك فعلا، لكننا عندما نستيقظ من تلك الغفوة القصيرة سنصطدم بالواقع، لن نتقبله وسنصب جام غضبنا عليه، ستبقى أحلامنا كبيرة مدة طويلة من الزمن، لكن كلما مر زمن تأكدنا فيه من أننا لن نستطيع الوصول إلى ذلك الحلم انتقلنا إلى حلم جميل آخر.

تتمنى أن تصبح لاعب كرة قدم ويعيش هذا الحلم معك مدة من الزمن، يخبو تارة، وتحركه المنافسات والمباريات تارة أخرى لكنك في النهاية ستتخلى عنه لأنك أصبحت على يقين أن العمر والأسباب المادية قد تجاوزتك، ستراقب كرتك الثلجية وهي تقطع آخر رحلاتها الخيالية لترتطم في الأسفل البعيد بصخرة الواقع المرير، ستتناثر حبيبات

(1) من العناوين التي أضفتها مكملة للكتاب، ولا علاقة للمؤلف (مانسون) بما ورد فيها.

الثلج في السماء معلنة نهاية حلم آخر.

سأخبرك بسر أتمنى أن يبقى بيننا وأن لا تبوح به لأحد، ربما سيساعدك في تجاوز نوبات السُّكْر التي تعيشها: كنت في شبابي شخصا حالما لا أستيقظ من حلم إلا وقعت في آخر أجمل منه، وكانت الأقسام الدراسية مملة جدا بالنسبة لي خصوصا مع بعض الأساتذة الذين يعجزون عن التحكم في الفصل، أو يعجزون عن التواصل مع التلاميذ، فكنت أتركهم ومشاكلهم وأغادر إلى عالمي الجميل حيث كل شيء يسير كما أريد.

أصبح التحليق في عالم الخيال عادة مسيطرة ضاع معها التحصيل، فأدخلُ الفصل وأخرج منه كما دخلت صفر اليدين، كنت أعوض ذلك في سنوات المتوسطة بالاطلاع على المقياس ليلة الامتحان فقد كانت الدروس سهلة، ولا تستدعي كل ذلك الجهد المبذول فيها، لكن الدروس كثرت في المرحلة التي بعدها، والأمور تعقدت، وأصبحت دروس الرياضيات والفيزياء أشبه بخريطة كنز مدفون في جزيرة بارمودية تعثر عليها عجوز تسكن إحدى القمم الجبلية في مملكة منسية، تتطلع فيها ثم تلقيها في التنور، يا له من مثال متعب!!.

لم تعد تنفعني المراجعة ليلة الامتحان وساءت الأحوال. كان علي أن أتخذ قرارات حاسمة لتجاوز المحنة، فلم أكن أتصور حياتي دون تحصيل الشهادة.

لقد كان تحصيلها في أحلامي كشربة ماء، فهل أعجز عن تحصيلها إذا جد الجد.

كيف سأواجه نفسي وتطلعاتي الحقيقية؟ ثم كيف سأواجه الضغوط المجتمعية التي تنتظر منك أن تريهم تلك الورقة الحقيرة؟.

نعم هي حقيرة بأتم معنى الكلمة لأنها لا ترحم، هي حقيرة لأنها تصنع الطبقية وتحطم النفوس البريئة، هي حقيرة لأن المجتمع جعلها كذلك.

كان قرارا قاسيا لقد قررت أن لا أحلم، قررت أن أعيش واقعي، وأن لا يسرح ذهني أبدا، لقد كان تحديا كبيرا، لكنني في الأخير نجحت فيه، لقد عشت سنتين بلا خيال، سنتين لا أتمتع فيهما بما سأحقق ولكن أبحث فيهما كيف سأحقق؟ ما الذي سيساعدني على الوصول؟ ما هو الزمان المناسب والمكان المناسب للمراجعة؟ كيف أتخلص من الضجيج؟ وكيف أتجنب الحوارات التافهة تفاهة التطلعات؟.

انتهت التجربة، وحصلت على نتائج جيدة، والتحقت بكلية الطب البشري، وبقيت آثار جيدة من تلك التجربة ترافقني إلى يومي هذا، فرغم أني عدت إلى عادتي القديمة التي هي الغرق في بحر السرحان إلا أنني طوال هذه السنين اللاحقة لم أحلم بنفسي أتمتع بما أود الحصول عليه، سواء أكان الحصول عليه ممكنا أو غير ممكن.

والخلاصة من حكاية هذه التجربة هي أن تكون إنسانا عمليا يعيش واقعه، وإذا أردت أن تحلم فاحلم بآلية تحقيق أهدافك لا بحالك بعد تحقيق الأهداف.

اختر ما تكافح من أجله

يقول المؤلف: جميع الناس يحلمون بما يريدون الحصول عليه لكنهم لا يسألون أنفسهم أو لا يأخذون بعين الاعتبار هذا السؤال: ما الألم الذي يريدونه في حياتهم؟ وما الذي يظنون أنهم مستعدون للكفاح من أجله؟.

ويقصد المؤلف بذلك أن الأهداف التي تود أن تحققها لابد وأن تقابلها تضحيات تقدمها، وبحجم تضحياتك تنال أهدافك، لكن الناس يحلمون بالأهداف، ويهملون

الحديث عن التضحيات.

وهذا كلام سليم إذا اعتبرنا أن كل عمل تقابله تضحية تساويه في القيمة، لكن هذا غير موجود، وبإمكانك أن تنتقل إلى أهداف أسمى بتضحيات أقل، وهذا ما يستهوي الناس، فليس البحث عن زيادة المدخول يقابله دائما التضحية بجهد أكبر أو ساعات أطول.

ثم الناس لا يغفلون عن التضحيات بل هي جزأ أساسي من حساباتهم، وسأضرب للمؤلف مثالا وليقس عليه، فإن في الواقع الكثير مثله: معلم يريد الانتقال من منطقة نائية إلى منطقة قريبة من مقر إقامته، قبل أن يقرر ذلك فإنه سيفكر في أمور كثيرة سيربح وقت التنقل ومصاريفه والتعب المرافق له بالإضافة إلى التخلص من الاستيقاظ الباكر ومشاكل الطريق والتأخر، وغيرها من الأمور، لكنه سيخسر الكثير: زيادة في ساعات العمل، ونقصا في الراتب، وسوءا في أخلاق تلاميذ المدينة بعد أن عاش أعواما مع سذاجة تلاميذ القرية وطيبة نفوسهم، والأهم من ذلك كله سيفقد فرصة الحصول على السكن الوظيفي، وأشياء أخرى كثيرة يعجز الذهن عن حصرها، وسيقابل بينها جميعا، وفي الأخير سيتخذ قراره، مرفوقا بتحمل كل التبعات.

أيها المؤلف نحن أجهزة متحركة تحسب لكل شيء قد تغفل عن أشياء لكنها حتما لا تُفلت الكثير، فلا تجعلنا نبدو كدمى عمياء مسيرة أو كأطفال لم يبلغوا الثالثة بعد.

نحن نعرف لكن معرفتنا وتقديراتنا قد تصيب وقد تخطئ، نحن نعمل الكثير لكننا نجبن أو نتردد في فعل الكثير الأمثل، فحل مشكلتنا الأولى أن نتعلم كيف نحسن التقدير

والتدبير، وحل مشكلتنا الثانية أن ندرب أنفسنا على تحمل المسؤوليات والتخلص من اللامبالاة واغتنام الفرص.

المغالطة التي مارسها المؤلف هنا على القارئ كبيرة، فهو يتحدث عن شخص حالم لا يقوم بعمل ويعزو فشله إلى أنه لم يختر الألم الذي يرغب أو يقدر على تحمله، والذي يصدق في التمثيل في هذا الموضع هو أن يتحدث عن أناس رغبوا في أشياء وساروا إليها لكنهم عجزوا عن تحمل مشقة الوصول إليها فانسحبوا، على أن يكون خطأُهم ناتجًا عن عدم اعتبارهم للمشاق ابتداء لا أن يكون ناتجا عن خطأ في تقدير المشاق، فإذا فهمت هذه الفقرة فستفهم الفرق بين كتاب «فن اللامبالاة» الذي يلقي الكلام على عواهنه ثم لا يبالي، وكتاب «وهم اللامبالاة» الذي يحاول أن يضع كل كلمة في موضعها حتى تقع الموقع الحسن في أذن المتلقي وفي واقعه.

مرة أخرى لا يفرق المؤلف بين إرادة الشيء والعزيمة على فعله، فالإرادة لا تستلزم العمل بينما العزيمة هي أولى خطوات العمل، إن أصحاب الإرادات لا يحتاجون لمعرفة ما سيواجهونه من مصاعب فهم لا يفعلون أصلا، وإنما يحتاجون لمن يدفعهم إلى العمل، ومن الجميل أن يكون هذا الدافع نابعا من ذواتهم.

يحكي لنا المؤلف قصته، لقد أصيب بهوس الشهرة كما يصاب به جميع المراهقين، أحبَّ أن يكون موسيقارا تتمايل الجماهير على وقعات أنامله، وظل يحلم بذلك نصف عمره، لكنه لم يبذل أي مجهود في سبيل الوصول إلى ذلك، لقد كانت نزوة عابرة لكنها نزوة استمرت سنوات طويلة.

يرفض المؤلف أن يُوصف ما مر به بأنه خذلان للنفس، وفشل، وتخل عن الحلم

وخضوع لضغوط المجتمع، ويفسر ما حدث له بقوله: أظن أني كنت أريد شيئا ما ثم تبين لي أني لا أريده، نعم بهذه البساطة يدفع فشله، يقول: كنت أريد النتيجة لكني لم أرد الصراع من أجلها.

ولكي لا نناقش المؤلف في نفسه وأفكاره ومشاعره، ننظر إلى القضية من وجهة نظر عامة: أحلام الصبا الجميلة لا تنبع من دراسة ولا تقدير لحجم التحديات، فهي لا تراعي قدراتنا ولا إمكانياتنا، وفوق ذلك هي خاضعة للتقلبات الطارئة على مبادئنا وقيمنا ونظرتنا للحياة.

هناك من يختار شيئا ويسير في طلبه حتى يصل إليه سواء أكانت الطريق إليه يسيرة أو عسيرة، وسواء أكان يملك قدرات خَلقية أو قدرات مطورة.

وهناك من يختار شيئا لكنه لا يصل إليه لأنه ببساطة لم يخطط لحياته، كان يعتقد أنه سيصل للقمة بضربة حظ أو كان يعتقد أن الوقت ما زال للبداية في العمل.

وهناك من يختار شيئا ويسعى في تحقيقه لكنه لا يصل إليه لأنه لم يستطع التغلب على التحديات، لم يكن يملك الإمكانيات، أثرت عليه الظروف المحيطة به كأن يتوفى والده فيترك الدراسة ويعيل العائلة، أو غير ذلك كثير.

ما أود قوله في هذا الموضع أن هناك من يصل إلى أحلامه، أو إلى ما هو أكبر منها، بالعمل المخطط أو بالعمل العشوائي أو بضربة الحظ، وهناك من يعجز عن تحقيقها لأسباب كثيرة لا كما يحاول المؤلف أن يصوره لنا.

ينتقل المؤلف مرة أخرى لإثارة الفوضى في مكان آخر، يقول: إن الناس الذين

يستمتعون بالتضحية في مجال محدد يستطيعون النجاح فيه، فمن يستمتع بممارسة رياضة بناء الأجسام سيمتلك القوة والبنية المنحوتة، ومن يستمتعون بأسابيع العمل الطويلة، وبسياسات السلم الوظيفي في الشركات هم من يصعدون إلى القمة.اهـ

لا يبدو هذا الكلام صحيحا، فأسباب النجاح مرة أخرى متعددة، ولا يمكن حصرها، وقد يستمتع الإنسان بالتضحية لكنه لا يملك الإمكانيات أو الإرادة لبلوغ القمة، وقد لا يستمتع الإنسان بالتضحية أو لا يضحي أصلا لكنه يجد نفسه في القمة، كان عليه أن يقول: إن من أسباب النجاح أن يحب الإنسان ما يُقدم عليه، وعندها لن يعترض عليه أحد.

عموما يبدو أن الفكرة الأخيرة لم تنضج في عقل المؤلف بعد، فليتأمل فيها مجددا أو ليتركها لما ينفعه.

وفي ختام هذا الفصل أقول:

إن الحل الأمثل للمشاكل يجلب السعادة، وإن وجود المشاكل الكبيرة يُنسي المشاكل الصغيرة، وإن رؤية مشاكل الناس يجلب الرضا والقناعة بما هو موجود، وإن تجريب المشاكل يعطي للسعادة معنى أكبر، ورب فرج يأتي بعد شدة، ولا يعطي للسعادة قيمتها من لم يعرف الشقاء والبؤس والحزن وبقية المعاني السالبة.

إن مشكلة كثير من الناس أنهم لا يعرفون حقيقية السعادة ولا يعيشونها مطلقا، فهم مرتبطون بأشياء مادية يسعون لتحقيقها، فإذا حققوها صاروا في خوف دائم من أن يفقدوها، فحياتهم كلها بين حرص وخوف.

إن السعادة تختلف عن السعي للوصول إلى القمة، وبإمكان الإنسان أن يجد السعادة في كل مكان هو فيه.

الفصل الثالث: أنت شخص متميز

أنت شخص متميز، لست كبقية الناس، لن تجد توأم روحك ولو ظللت تبحث عنها أعواما، لكن هناك من يشترك معك في بعض الصفات أو في كثير منها، ولذلك لا تحاول أن تقلد كل من تجده أمامك، وابحث عما يميزك واعمل ما يمكنك فعله، فكل ميسر لما خلق له.

لسنا مؤهلين لأن نكون كلنا أشخاصا استثنائيين، أشخاصا خارقين، سينجح في هذا الاختبار أشخاص قليلون جدا وسيرسب الكثير.

يذكرني هذا الكلام بقوله ﷺ: «الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة» أي أن الناس يشبهون في تميزهم الإبل، ترى جمعها فيعجبك حسنه، وتظن نفسك ظافرا بعدد كبير منها لقافلتك، لكنك في الأخير ستفاجأ بعدم وجود بعير قوي بينها، بعير قادر على تحمل مشاق الأسفار والأحمال.

وهكذا هم الناس في كل مئة منهم لا تكاد تجد شخصا استثنائيا، لكن هذه الإبل متميزة فيما بينها فمنها الحلوبة ومنها الولودة ومنها الودودة...إلخ.

من الجيد أن تعرف أنك قد لا تكون استثنائيا لكنك شخص متميز، وعليك أن تجد ما يميزك، لا تنتظر من ينفض عنك الغبار، ويحرر الطاقة الكامنة في داخلك، بإمكانك أن تفعل ذلك، ولا أحد أعلم بك منك.

يمكن تقسيم كلام المؤلف في هذا القسم إلى شقين: الأول قصة جيمي وما نستخلصه منها، والثاني: نقد تقدير الذات.

ولنبدأ بقصة جيمي فهو شخص نجد أمثاله في حياتنا؛ واثق من نفسه، ذو قدرات إقناعية كبيرة، ونفس ظريفة تصنع المتعة، عنده أفكار إبداعية في الحصول على المال، وبحث عن التربح السريع بالطرق المشروعة أو غير المشروعة، لكن أقواله أكبر بكثير من أفعاله، يغلب على هذه الشخصية الاستهتار، وإنفاق المال، وبهرجة المظهر حتى مع الفقر، وفي النهاية الفشل بسبب كثرة الإنفاق لا بسبب عدم القدرة على الحصول على المال.اهـ

أمثال جيمي أشخاص سيئون في الغالب تغلب عليهم الأنانية، لكنهم ليسوا فاشلين دائما بل ينجح منهم الكثير، فقد يسوق أحدهم القدر إلى مشاريع يستخرج منها الذهب فلا ينفد ماله حتى لو أنفق منه الليل مع النهار.

محل الشاهد في هذا النموذج أن أصحابه يعتقدون أنهم أذكياء جدا، وأن سبب إخفاقاتهم لا ترجع لأنفسهم، ويتعالون عن سماع أي نقد موجه إليهم.

ومن هذه القصة لا النموذج يحاول المؤلف أن يصل إلى خطأ التقدير العالي للذات، لكن في الحقيقة جيمي وأمثاله يعتقدون امتلاكهم الذكاء -وهم يمتلكونه فعلا مع المبالغة في تقديره- لكنهم لا يعتقدون أنهم خارقون، وأن بإمكانهم إحداث تغييرات في العالم، وهذا ما يجعلهم لا يصلحون لربطهم بالاستثنائيين، ثم نحن لا ندري هل جيمي وأمثاله يدافعون عن أخطائهم تماشيا مع خطتهم التي تستوجب عليهم دائما أن يظهروا أمام غيرهم أقوياء أذكياء ذوي أموال ونجاحات.

وأما في مجال تقدير الذات فقد شن المؤلف حملة شعواء عليها، حملة شعواء غير

منصفة لقد شوه صورتها تماما بمغالطاته المعهودة، إنه يريد من تقدير الذات أن تخلق لنا أشخاصا مثل بيل غيتس، وإلا فإنها في نظره فاشلة، إنه يقول: إن تقدير الذات لا تزيد على أن تخلق أشخاصا مثل جيمي، لكنه غير صادق في ذلك، والدراسات الكثيرة تفند مزاعمه، فتقدير الذات أمر إيجابي جدا إذا كان وسطيا، وزيادته تؤدي إلى النرجسية وغيرها من الأمراض، ونقصه يؤدي إلى التضخم في النقد الذاتي، أو التردد الشديد، أو الخوف من الأخطاء، أو غيرها من الصفات السلبية.

ثم إن المؤلف لا يفتأ أن يكرر نفس الفعل مع قرائه، في مواضع كثيرة من الكتاب، يقول في موضع منها: أنت عظيم حقا، سواء أدركت ذلك أو لم تدركه، وسواء أأدرك غيرك ذلك أم لا.

لا أحد من مطوري الذات يقول لك: تمتع بأحلامك، وستنال النجاح، بل لا بد من العمل، لا أحد يقول لك: قلد فلانا أو علانا، وإنما الجميع يخبرك بأن عندك قدرات يجب أن تعرفها وتستغلها.

يقول المؤلف: إن جيمي وأمثاله بتقديرهم المفرط للذات يتمكنون من خداع أنفسهم، فيعتقدون أنهم ينجزون أشياء عظيمة، بينما هم لا ينجزون شيئا، فيجعلون من أنفسهم أضحوكة بين الناس، وقد يتمكنون من خداع بعض الناس لفترة وجيزة بسبب ثقتهم المفرطة بأنفسهم.اهـ

كانت هذه مشكلتي الكبيرة، لا أقصد بالطبع الثقة المفرطة وإنما الانخداع بمن يثق في نفسه، ولا أفيق من ذلك إلا بعد مدة، لقد كنت أعامل الناس دائما على أساس أنهم صادقون في أقوالهم عارفون بأنفسهم، لكن الكثير منهم وخصوصا الفاشلون المفرطون

بالثقة في أنفسهم كثيرا ما خدعوني، إنهم كاذبون ولا يستحون من ذلك، متقلبون ولا يجدون في أنفسهم حرجا أن يقولوا شيئا صباحا وينقضوه أو لا يتحملوا تبعاته مساء، إنهم فاشلون ولا يحبون أن يسمعوا ذلك، مغرورون بأنفسهم يلقون بتبعات الفشل على غيرهم، ولذلك تجدهم في نفس المكان الذي تركتهم فيه مهما طالت الأزمان.

لازالت هذه مشكلتي لكنني أتطور شيئا فشيئا، لم أعد أشتري الأشياء ذات القيمة كالسيارات القديمة إلا بعد أن يعاينها خبير، لم أعد أثق في الأسعار التي يدعيها الباعة في المزايدات، لم أعد أثق في الصفات التي يضفيها الباعة على سلعهم، هذا ما أفترضه في عقلي لكني في الواقع مازلت أتبع نوازع الفطرة في قلبي والتي تفرض علي تصديق كل الناس إلا من أبان عن كذبه الصراح.

يقول المؤلف: إن هؤلاء الناس يبذلون الكثير من الجهد ليقنعوا أنفسهم بأن فضلاتهم لها رائحة طيبة، يا له من وصف دقيق!!.

إنهم يعتبرون كل شيءٍ جيدٍ دليلا على عظمتهم، وكل شيءٍ سيءٍ في حياتهم هو بسبب غيرهم، وكل توجيه أو تصحيح لهم هو غيرة منهم.

الأشياء تتداعى أو تتهاوى

يحدثنا المؤلف في هذا الفصل بأسلوب شيق عن شيء من حياته الشخصية في صغره، وعن لحظة حاسمة أثرت في حياته، لقد كان شخصا ذكيا تافها، جره طيش الصبيان إلى أن يفعل أفعالهم، وانتهى به المطاف في مكتب المدير وهو ابن ثلاث عشرة سنة بتهمة توزيع المخدرات في المدرسة، كانت لحظات عصيبة سادها أحيانا صوت المدير الممتلئ

بالغضب، وإنكار الطفل البريء أحيانا، وأحيانا أخرى سكون قاتل يضاهي سكون المقابر ويزرع الرعب في قلبه الصغير، لقد أصبح جسمه يتعرق ذهولا من هذا الموقف، وفي النهاية اكتشف المدير مكان تخبئة الماريغوانا، وانكشف كذب الصبي، لقد كان كما يصف نفسه تافها عاصيا كذابا سريع الغضب كثير الاستياء.

كانت العقوبة التي تلقاها قاسية في نظره، ولم تكد تنتهي حتى انفصل أبواه، ففقد حسب قوله أصدقاءه وحقوقه القانونية وأسرته، ثم انتقل لحديث ممل عن انفصال والديه.

وبعد صفحات طويلة يتضح غرض المؤلف من إيراد تلك القصة، لقد دفع ثمنا باهظا وعاش طفولة قاسية، ولذلك يجب أن يُنظر إليه بنظرة خاصة، لقد كان يعتقد لفترة طويلة أنه يملك الحق في فعل أو قول ما يريد، وفي تخييب ثقة الآخرين، وفي تجاهل مشاعر الناس، وتبرير كل ذلك لاحقا بأعذار واهية لا قيمة لها.

ثم يختم الكلام بأن على الناس الذين عانوا أو يعانون من المشاكل، ويعتقدون أنهم مميزون عن غيرهم، ويستحقون أن يفعلوا ما لا يجوز لغيرهم، عليهم أن يتأكدوا أن هناك ملايينا ممن عانوا أو يعانون مثلهم، وأنهم ليسوا حالة خاصة أو استثناء.

لقد أطال المؤلف الكلام دون أن يعطينا في النهاية فوائد ذات قيمة، إنه يذكرنا دائما بأن كتابه يحوي مواطن مملة، وأن بالإمكان اختصار أفكاره وفوائده في ورقات، لم أكن أود قول ذلك لكنني أعمل بقول المؤلف قل للشيء السيء أنت سيء.

ليس التطويل في القصة بلا فائدة هو ما يقلقني كثيرا، فهناك ما هو أخطر، إنه فيروس الكذب وهو أخطر من فيروس كورونا الذي يبث الرعب في العالم اليوم، إن

السؤال الذي يسيطر على ذهني الآن: هل المؤلف صادق في نقله؟.

لا أظن ذلك فمن طُبع على شيء، وعاش عليه أهم سنوات عمره لا يمكنه أن يتخلص منه بسهولة، وخصوصا وأننا لاحظنا علامات للمبالغة والكذب والتحريف في مواضع من كتابه، سنُذكِّره الآن بما كان يُذكرنا به طوال الوقت: إن عقولنا تافهة وذاكرتنا مهترئة، وهي تُغير الأحداث لتبدو في صورة أحسن وأكمل، ولذلك تبدو قصته زائفة محسنة والنتائج المستخلصة منها مغشوشة.

إن التقدير الذاتي الزائد أو طلب الاستحقاق الزائد، لا تنحصر أسبابه في الآلام التي يعيشها الإنسان في فترة من حياته، إن له أسبابا كثيرة ومتنوعة، إنه مرتبط بصفاتنا الخلقية والخُلقية وبمحيطنا وبتجاربنا وبثقافتنا وديننا وعرقنا وبغيرها من الأشياء.

مرة أخرى نجد المؤلف ينظر إلى الأشياء من خلال نفسه، لو كان مسؤولا في منطقة ما لحدثنا عن أثر المدَّاحين في تنمية طلب الاستحقاق الزائد في نفسه، لو كان معاقا أو مصابا بمرض مزمن لأخبرنا عن آلام المرضى وما يجدونه في أنفسهم من واجبات موضوعة على عاتق الغير اتجاههم.

يقول المؤلف: إن طلب الاستحقاق الزائد يمر من طريقين الأول: يرى نفسه فوق العالم وأفضل ممن حوله ولذلك يستحق معاملة خاصة، والثاني يرى نفسه تحت العالم ولذلك يستحق الشفقة والمعاملة الخاصة، وأصحاب القسم الثاني يخفى على الناس كونهم من طلاب الاستحقاق الزائد.اهـ

نعم هؤلاء موجودون يعيش أحدهم في فقر وحاجة، ثم تتحسن حاله لكنه لا يغير

نظرته لنفسه، إنه الإنسان الفقير الذي يستحق عطف الناس وكرمهم، لقد رأيت من يملك ما يملكه الأغنياء لكنه لا يعتبر ما عنده مالا، رأيت من تحسنت أحواله لكنه ما زال ينظر إلى نفسه نظرة الفقير المعدم الذي ينتظر الصدقة من غيره.

طغيان الاستثنائية

يظن كثير من الناس أنهم استثنائيون يملكون قوى كامنة أو خارقة أو عبقرية فذة، لكن الحقيقة هي أن أغلب الناس متكافئون، وأن ما يظنونه تفوقا وعبقرية ما هو إلا أشياء عادية يمكن للجميع فعلها إذا ما أتيحت لهم نفس الفرص، ويتأكد كون هذا التفوق وهما كلما ظن الناس أنهم بارعون في العديد من المجالات.

لقد ظهر على مر التاريخ أناس امتلكوا عبقرية فذة مكنتهم من التفوق العالمي في كثير من الفنون، لكن هذا الصنف من الناس نادر، وهو اليوم أندر، لأن الجمع بين العلوم والمعارف والفنون قديما كان سهلا، أما اليوم فقد اتسعت رقعة العلوم، ودقَّتِ المعارف وتخصصت، وأصبحت النجاحات تُنال بالتدريبات الشاقة على مدار السنوات الطوال، ومن النادر اليوم أن تجد شخصا كابن تيمية يتكلم في كل علم فيبرع فيه، أو شخصا كدافنشي يبرع في الرسم والنحت والهندسة المدنية والعسكرية، والرياضيات وعلم الخرائط وغيرها.

يقول المؤلف: إن الرياضيين المتميزين غالبا ما يكونون بليدين ذوي تفكير ضحل، وأن رجال الأعمال غالبا ما يكونون فاشلين في حياتهم، وإن الكثير من المشاهير ليست لهم خبرة في الحياة ...إلخ.

يبدو كلامه هذا مبالغا فيه بعض الشيء، أو مؤديا لمعنى غير مراد منه. نعم، النجاح

في شيء ما لا يعني أن تكون ناجحا في كل شيء، فكل شيء في الحياة يحتاج إلى إمكانيات وخبرات خاصة.

إن اتهامه متميزي الرياضيين بالبلادة غير مقبول تماما، بالتأكيد هم ليسوا عباقرة لكنهم ليسوا أغبياء إلى تلك الدرجة، إنهم يحملون الكثير من الذكاء والإبداع ولولا ذلك لما استطاعوا تقديم العمل الجيد أو الوصول إلى ما وصلوا إليه، لكنهم مرة أخرى ليسوا عباقرة، والمشكلة ليست فيهم وإنما في المراقب الذي يتوقع أن يكون التفوق الكبير في مجال ما دليلا على التفوق الكبير في مجالات أخرى، إنهم ببساطة أناس عاديون في غير مجالهم، وإذا كان المؤلف في شك من ذلك فلينظر إلى قائمة مدربي كرة القدم، ففيها الكثير والكثير من الرياضيين الذين ملكوا ذكاء وقدرات متنوعة.

يقول المؤلف: إن ما يلفت انتباهنا في هذا العالم هي الحالات الاستثنائية الجيدة أو السيئة، وإن مواقع التواصل تستغل ذلك فترسل لنا كميات ضخمة من المعلومات الاستثنائية طوال اليوم عن أفضل الأفضل وأسوأ الأسوأ، لقد أصبحنا نرى الاستثنائية هي الحالة العادية، ومن ثمة أصبحنا نرى عجزنا فيصيبنا اليأس، وبدلا من العيش يائسين فإننا نلجأ إلى تضخيم ذواتنا أو البحث عن الأشياء الاستثنائية لفعلها مهما كانت هذه الأشياء.

لقد تحدث في هذا المبحث عن أشياء كثيرة تدور كلها حول تعرض الناس للإعلام الموجِّه نحو البحث عن الاستثنائية والتميز، مع كثير من المبالغات، فعامة الناس لا تبحث عن التميز، ولا هم قادرون على تحمل تبعاته، وإنما يريدون تفاعلا معقولا معهم.

لقد أغفل المؤلف جانبا مهما مما تمدنا به وسائل التواصل، إنها تمدنا بأخبار الناجحين وتمدنا كذلك بأخبار الفاشلين، والمضطهدين، والمعذبين، تمدنا بأخبار الموت والموتى، وتذكرنا دائما بأن نهاية النجاح هي الموت، وأن أصحاب الأموال الكثيرة لم يأخذوا معهم في الأخير سوى كفن أبيض.

إذا لم أكن سأسعى لأن أكون استثنائيا فماذا سيكون هدفي في الحياة؟

ذكر المؤلف أن المشاهير يحثون العامة ليكونوا استثنائيين، وأن كل واحد من العامة بإمكانه أن يصبح استثنائيا، ويستشكل المؤلف ذلك قائلا: إذا كان الجميع استثنائيا فسنصبح عاديين، فنحن جميعا سواء، ولا يوجد ما يميز أحدنا عن الآخر، ثم يزيد تشويها لهذه الصورة الإيجابية بخلطها بالانحدار إلى فعل الأسوأ لجلب الأنظار.

قلت: ما أكثر المغالطات العقلية التي يراوغ بها المؤلف عقله وعقول القراء، أكثر الناس يملك مقومات التميز في مجال محدد أو مجالات متعددة، لكن الناس لا يصبحون جميعا متميزين، لأن أشياءً كثيرة تمنعهم من ذلك، فمن لم يحسن اختيار ما يمكن أن يحسنه لن يتمكن من الوصول، ومن لم يعمل ويبذل الأسباب فلن يصل، ومن استسلم لمصاعب الحياة لم يصل كذلك، ولهذا فإن خطاب المصلحين ومطوري الذات سليم: أيها الناس بإمكانكم أن تكونوا مميزين اعرفوا أنفسكم وطوروها وستصلون، ولا يصح أن تَفصل هذه الرسالة عن غيرها، أو أن تُعالجها أو تنتقدها دون بيان ارتباطها بالعديد من المقدمات ككون التميز ليس غاية في حد ذاته، وأن عدم التميز ليس مرتبطا بالفشل، فيمكن للمرء أن يكون ناجحا سعيدا غير متميز.

ثم يواصل المؤلف النظر من زاوية ضيقة لنصر فكرته مدعيا أن الأشخاص المتميزين

الحقيقيين أصبحوا عظماء لأنهم يفهمون أنهم ليسوا عظماء في الأصل، وأنهم أناس عاديون متوسطون قادرون على أن يكونوا أحسن من ذلك.

ولعلك أيها القارئ الكريم لا تكاد تجد لما ادعاه صورة مطابقة تقول عنها لعل المؤلف نظر إلى فلان من الناس فظن أن الناس جميعا مثله فأخطأ.

لقد كان المؤلف كذابا مدة طويلة من حياته، يعطي لنفسه تبريرات على أفعال سيئة ويرى العالم من زاوية نفسه ومصالحه الضيقة، ربما تمكن من تجاوز الكثير من ذلك لكن بعض البقايا ظاهرة، لقد كان يفعل أشياء سيئة ثم تجده راضيا عن نفسه لأنه وجد التبريرات المناسبة لها، هو الآن ينقل لنا تبريراته للفشل، كن فاشلا وارضى عن نفسك.

دعنا من ذلك الآن ولنعد إلى قضية خطيرة وهي تسرب تعظيم الذات والحديث عنها بما ليس فيها إلى كثير من المشاهير والناجحين: إن النجاح يفتح أمام الإنسان أبوابا أوسع لتقدير الذات تقديرا زائدا، وقد تسربت هذه القضية إلى بعض علماء الشريعة وخصوصا المشتغلين بأخطاء وعيوب الناس، تجد الواحد منهم في الظاهر يدعي التواضع وأنه مجرد طالب علم، لكنه عند التحقيق يرى نفسه أعلم وأفهم من كلِّ الخلق.

يختم المؤلف كلامه بالعودة إلى قاعدته العامة أنت لست استثنائيا وهذا ليس سيئا، ويضيف إليها فإذا عرفت ذلك فبإمكانك أن تمارس أشياء مضجرة، وتحس بالمتعة؛ لأن طريقة تفكيرك تغيرت.

الفصل الرابع: قيمة المعاناة

هيرو أونودا مقاتل ياباني ظل يقاتل في إحدى جزر الفلبين النائية 29 سنة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان يظن أن الحرب لا زالت مستمرة، وأن عليه ألا يستسلم، قُتل آخر رفاقه قبل سنتين من العثور عليه.

لم يقتنع أونودا بانتهاء الحرب رغم الرسائل الكثيرة التي كانت تلقيها الطائرات تدعوه للعودة إلى الديار، وظن أنها مجرد خدع أمريكية، ولم ينجح آلاف الجنود على مدى سنوات طويلة من العثور عليه، وفي نهاية المطاف تمكن شاب ياباني باحث عن المغامرة اسمه سوزوكي من العثور على ما كان يعتبر أسطورة، كان في قائمة هذا الشاب البحث عن أونودا ثم باندا برية ثم رجل الثلج، نجح في العثور على الأولين وتوفي وهو يبحث عن الثالث في انهيار ثلجي.

يقول المؤلف: من الصعب تخيل كيف كان ممكنا للملازم أونودا أن يكون سعيدا على تلك الجزيرة طيلة ثلاثين عاما، وهو يعيش على الحشرات والقوارض وينام على التراب ويقتل المدنيين.اهـ

وفي الجواب عن ذلك أقول:

أولا: أونودا لم يكن سعيدا وإنما كان راضيا وفرق بين السعادة والرضا.

وثانيا: إن القيم هي التي تحركنا، وأمامها يصبح كل ممكن عقلي ممكنا على أرض الواقع.

يحاول المؤلف دائما أن يجلب أشياءً ليوظفها في خدمة أفكاره، قد تنطلي هذه الخدع والمغالطات والأكاذيب على كثير من القراء الذين يقرأون الكتاب قراءة سريعة أو قراءة تسليمية أو قراءة لأجل القراءة، لكنها تنكشف أمام آخرين، وحبل الكذب قصير.

يحاول المؤلف أن يحجِّم أو يصغِّر ما قام به الرجلان، ويظهر أنهما بطلان وهميان لا غاية حقيقية لعملهما، فأونودا عند عودته إلى اليابان وجد منظومة القيم التي دافع عنها قد تغيرت، وحلت محلها قيم غربية، ولذلك هاجر إلى البرازيل سنة 1980م ليموت هناك، هكذا يضفي المؤلف طابعا دراماتيكيا على القصة ليزيد من التأكيد على ما يصبوا إليه، لكن الحقيقة أن أونودا عاد إلى اليابان سنة 1984م ومات فيها بعد أن أمضى ثلاثين سنة أخرى.

بينما سوزوكي كما يصوره المؤلف إنسان فاشل ترك المدرسة، ويركز على ذلك حتى يخيل إليك أن سوزوكي إنسان بقدرات محدودة تم طرده من المدرسة، بينما في الحقيقة هو إنسان بهمة عالية لم تناسبه القيود الجامعية فتركها، ولو أراد المؤلف أن يوظف قصة سوزوكي بطريقة أخرى لوظفها إما في علو الهمة والجلد أمام مصاعب الحياة والتمتع بالمعاناة، أو يوظفها في تغيير المسار والنجاح، لقد أصبح في وقت ما أشهر الشخصيات في اليابان، ولا شك أن قصته كانت ملهمة لغيره فترة من الزمن، ولم يكن ذلك الإنسان الفاشل الذي لا يحسن اختيار أهدافه.

لقد شبههما بدونكيشوت وسانشوبانزا لحظة لقائهما، ولم يكونا كذلك، فالأول كان يقاتل من أجل بلده، لكن الحرب انتهت ولم يدرك ذلك فما ذنبه؟! والثاني كان يكشف عن أسطورة شغلت بال اليابانيين أعواما، وقد نجح في ذلك، فأي شبه بينه وبين

سانشوبانزا؟! لا يوجد شبه بينهما إلا عندما نريد أن نقلب الحقائق.

يقول أونودا على حسب نقل المؤلف: إنه ليس نادما على شيء وإنه فخور بخياراته، يُعقب المؤلف: لقد اختار المعاناة وفاء لإمبراطورية ميتة.

لا شك أن أونودا لم يفعل ذلك، وبمجرد تحققه من انتهاء الحرب بطريقته عاد إلى الديار، ولو أدرك ذلك بعد يوم من انكسار الإمبراطورية لألقى السلاح كما ألقى رفاقه، لكن جوهر القضية هو أنه اختار في وقت ما يراه صوابا بحسب ما تجمع لديه من معلومات، وسيكرر نفس الاختيار إذا تكررت الظروف.

من العجيب هنا أن المؤلف يريد من أونودا أن يندم على اختياره، بينما نجد المؤلف بعد ذلك بفصول عندما سيختار بين أمرين يقول: إنه لن يندم على اختياره حتى ولو أضاع من عمره خمس سنين.

ولعل الجملة المفيدة سواء أكانت صحيحة أو خاطئة في كل ما قاله المؤلف في مدخل هذا الفصل هي: إذا كانت المعاناة حتمية، والمشاكل لا يمكن تجنبها، فإن السؤال الذي يجب أن نطرحه ليس: كيف أتوقف عن المعاناة؟ وإنما: لأي غرض أعاني؟.

إدراك الذات

يقول المؤلف: إن إدراك الذات كتقشير بصلة:

القشرة الأولى منها هي فهم أولي بسيط لذواتنا يملكه كل الناس، أحس بكذا وأشعر بكذا، هذا الفهم الأولي قد تكون فيه نقاط عمياء تجعل بعض المواضع في أنفسنا غامضة تحتاج إلى بذل جهد لتحديدها والتعبير عنها بشكل مناسب.

القشرة الثانية هي قدرتنا على فهم سبب مشاعرنا وانفعالاتنا، ويمكن الوصول إليها بأسئلة من قبيل: لماذا تشعر بالغضب؟ ولماذا تحس نفسك كسولا متبلدا؟ ...إلخ، وإذا عرفت السبب أمكنك فعل شيء ما لتغييره.

القشرة الثالثة هي قشرة القيم، والوصول إليها صعب، وهي الأعمق والأهم لأنها تحدد طبيعة مشاكلنا، وطبيعة مشاكلنا تحدد مدى جودةحياتنا. إن القيم هي التي تحركنا وهي التي تحدد ما نعتبره نجاحا وفشلا.

لكن الناس ترعبهم الإجابة الصادقة أو الدقيقة عن أسئلة «لماذا؟» وهذا ما يمنعهم من تحقيق معرفة أعمق لقيمهم، إننا أمام الفشل نلقي باللوم على الآخرين بدل البحث الحقيقي عن أسبابه.

يتحدث المؤلف هنا عن تغيير معايير الفشل، وبالتالي تتحول نكساتنا إلى أشياء عادية أو إلى قاعدة انطلاق جديدة، وتحت هذا الإطار يقول: ماذا لو كان ذلك الفشل ليس فشلا في حقيقة الأمر؟ ماذا لو كان الخلل في نظرتك إليه؟.

ويضرب مثالا لذلك:

القيمة: هي وجود علاقة طيبة بين الإخوة، والمقياس: **وجود تواصل بينهم**، لكن هذا المقياس يبدو فاشلا، فقد تكون العلاقات طيبة رغم عدم وجود التواصل، ولذلك غيَّر المقياس إلى: **وجود الثقة والاحترام**، ورغم أن تغيير المقياس في هذا الموضع يبدو منطقيا عند المؤلف لكنه لا يزال يتألم من عدم رد أخيه على رسائله.

مرة أخرى يعالج الموضوع بسطحية، ما هو الضابط في تغيير المقاييس؟ هل هو البحث عن موافقتها للواقع أم لأهوائنا؟.

إنه في هذا الموضع يُعْلمنا أن المقياس خاطئ وكفى، ولا يقدم بعد ذلك أية إضافة.

من الجيد أن يُعْلم الناس أن هناك مقاييس وأنهم قد يخطئون في التقدير، ربما هم يدركون ذلك لكنهم لا يسمونها مقاييس، إنهم يجمعون أدلة كل قضية ثم يرجحون بينها، لكنهم بعد اتخاذ قرارهم لا يعودون لمناقشته.

بإمكانهم أن يفعلوا ذلك الآن، وأن يسموا النتائج التي وصلوا إليها بمسمياتها، إن كان ظنا غالبا أو شكا أو ظنا مرجوحا، بإمكانهم كذلك أن يضعوا ضوابط لاختياراتهم، كتقديم حسن الظن، وعدم الانخداع بأن يلدغوا من الجحر مرتين وغيرها.

إننا نحكم في عشرات القضايا كل يوم، أحيانا نحكم فيها بالقسط وأحيانا نميل عن الحق رغم معرفتنا به.

لنترك المؤلف قليلا، ولنذهب في جولة سريعة نبحث في نوايانا الحقيقية، فهي التي توثِّق معرفتنا بأنفسنا وتمنحنا نظرة صادقة للواقع:

هناك خلف قضبان السجن، حيث تحتجب أشعة الشمس، وحيث يُختصر العالم في أربعة جدران وسقف، كان يقبع معلمي المتسرب المدرسي الذي يفهم في كل شيء!! بإمكاني أن أراه الآن وسط حلقة من الشباب والشيوخ، وقد اشتعل رأسه شيبا فصار كصفحة القمر التي لا نراها، يُحدِّث تلاميذه في مسائل علمية عن عمل القلب وكيفية تقويم اللسان، وبعد أن يُتم درسه ربما انتقل إلى ممارسة الكاراتيه فهو جُذيلها المحكك، وبعد أن ينهي قتاله مع البشر يذهب في رحلة أسطورية -يعمرها الإيمان وحضور الذهن ورهبة المكان- لمطاردة الجن والعفاريت، لقد كان موئلا للسجناء والسجانين وحتى

الأطباء!!، يلجؤون إليه ليخرجهم من مشاكلهم النفسية والروحية، ولا يكاد ينتهي يومه إلا بنقاش أو جدال لا ينتهي حتى يُخرج أنفاس خصمه.

تذكرته الآن بين يدي فائدة من فوائده العزيزة التي كنت أرددها دائما عند الحاجة إليها: إن الإنسان يستطيع الكذب على كل الناس، لكنه لا يستطيع الكذب على نفسه.اهـ يكفيه فقط أن يستمع إليها.

إننا نحن المسلمين لدينا باب عظيم من أبواب الفقه، والعقيدة يسمى باب النيات، لا أظن أن هناك من اهتم به مثلنا، ولذلك فإن ما يتكلم به المؤلف لا يعدو أن يكون مبحثا لطيفا من مباحثها.

إن مدار الإسلام على بضعة أحاديث، أعظمها يتحدث عن النية وكيف تؤثر على العمل فسادا وصحة.

بإمكانك أن تبدأ صلاتك أو أي عمل من القربات قاصدا به وجه الله فإذا تحرفت نيتك بطل عملك، وإذا اختلطت نقص من عملك القدر الذي خلطت فيه، إننا في صراع دائم لمعرفة نوايانا وإصلاحها.

إن بحث المسلم الصادق عن الإخلاص في عمله لله، يجعله على اطلاع كبير بدفائن نفسه وخباياها، إذ لا مجال للكذب في هذه المنطقة.

يقول المؤلف في المباحث التالية: علينا أمام المشكلات أن نُغيِّر قيمنا أو أن نُغيِّر ما نقيس به نجاحنا من فشلنا.اهـ

فلنحاول فهم ما يقول ولننظر في كونه معقولا مقبولا، أم أنه كلام آخر ملقى على عواهنه.

اختلاف القيم بين الناس وضبط المعايير

يحكي المؤلف قصة عازف موسيقي اسمه ديف موستين طُرد من فرقته قبيل يومين من أول إنجازاتها، فقرر أن ينجح ويجعل أعضاء فرقته يندمون على ذلك، وبعد سنوات من العمل الجاد تمكن من الوصول إلى قمة النجومية، لكن لمعان فرقته القديمة ظل أسطع، ولذلك اعتبر نفسه في مقابلة خاصة فاشلا على الرغم من كل ما حققه.

لا أدري لماذا يتلاعب المؤلف بقصصه حين يدعي أن العازف طرد من غير إنذار ويظهر الأمر كأنه جاء بعفوية وبغير أسباب، لقد كان العازف مدمن خمر ومخدرات ومفرطا في العدوانية ضد الأعضاء المؤسسين، وطرد من الفرقة قبل ذلك ثم سُمح له بالعودة، لكن الذي تغير هذه المرة هو أنهم لم يمنحوه فرصة أخرى للاعتذار أو النقاش.

ثمَّ هل اعتبر موستين نفسه فاشلا على الإطلاق أم فاشلا في معركته مع فرقته القديمة؟ نعم، إنه فاشل في معركته وليس في حياته، حياته لها مقاييس أخر، لكنه لم يكن راض عنها كذلك رغما نجاحاته، لقد كان يعيش في دوامة كبيرة من الإدمان لم يستطع الخروج منها، كان يريد العودة إلى حياة روحية مسيحية مستقرة لكنه لم يوفق إلى ذلك كل التوفيق.

لقد اعتمد المؤلف على مصدر نادر ليخبرنا أن موستين يرى نفسه فاشلا، ثم يعتقد أنه فاشل في حياته، فليُرنا هذا المصدر فهناك فرق بين الفشل في الحياة، والفشل في المسيرة المهنية، والفشل في تحد ما.

لقد فاز موستين أخيرا عندما صُنف في أحد الكتب الصادرة سنة 2009م كأفضل

عازف على الغيتار، وتفوق على أعضاء فرقته السابقين، كان يقلب صفحات الكتاب لا ليعرف مرتبته، وإنما لينظر هل فاز على غرمائه أم لا؟، وفي الأخير قال: لقد فزت.

ولذلك أقول على المؤلف أن لا يتلاعب بقرائه لقد أعطوه عقولهم ليغرس فيها ما يريد، فليمنحهم القليل من الصدق.

وانطلاقا من خطأ موستين في اختياره قيمة سيئة يُذكِّر المؤلف قراءه بأنهم مجرد قردة أنيقة الملبس تقيس أنفسها بالآخرين.

يبدو أن المؤلف قد ابتلع طعم التطور ولم يعرف حدوده، ولذلك تجده يخطئ في كل مرة يستحضره فيها، لقد ترك عقله الذي ميزه الله به مستعملا الغريزة الحيوانية في التعليق على هذه المعضلة، والسؤال هنا هل تملك القرود فعل ذلك أم أن المؤلف يبالغ في الانتقاص؟ ثم إذا كانت المقارنة هي ما يدفعنا للنجاح، فلعل الكثير من الناس سيجدون ذلك جيدا، ومن أراد الاعتبار فلينظر إلى قصة العصامي الذي دفعه الشبان العائدون من الزيتونة إلى الاستزادة من العلوم والمعارف كي لا تسقط المكانة التي صنعها لنفسه، ولو لم تكن تلك المنافسة لبقي في مكانه لا يبرحه[1]، إن النظر إلى الآخرين أحيانا ومحاولة التفوق عليهم هو ما يدفع كثيرا من الناس إلى التقدم، إنه أمر جيد إذا لم يترافق بالحسد، والسعي للتفوق بغير المشروع، والتألم عند عدم حصول التفوق، وإهمال المهمات من أجله.

رغم أن الأمثلة التي ضربها المؤلف لا تصلح لما ذهب إليه إلا أننا نعتبر ما يستخرجه منها صحيحا لإمكان وجود هذه الأمثلة في الواقع:

---

(1) انظر «نماذج بشرية» لأحمد رضا حوحو (ص: 19 وما بعدها) ط هنداوي.

- هناك من القيم التي تدفعنا إلى النجاح قيم تبقى تؤلمنا بعد ذلك.

- علينا أمام المشكلات أن نغير قيمنا أو أن نغير ما نقيس به نجاحنا من فشلنا.

وفي مثال آخر ذكر المؤلف قصة عازف طردته فرقته في نفس ظروف موستين، فتدمرت حياته وأصبح بائسا مدمنا تعيسا، حاول الانتحار لكن أمه وأخاه أنقذاه، وبعد 30 سنة من الطرد يصرح بأنه أكثر سعادة مما لو بقي مع الفرقة، ويتمادى المؤلف في بيان سبب السعادة ،يقول إنها العائلة الكبيرة والصغيرة والزوجة التي غنمها بعد الفشل.

ما يخفيه المؤلف في هذه القصة كذلك هو أن الموسيقي المطرود «بيست» كان بقدرات محدودة، وأن هذا من أسباب طرده من الفرقة، وأنه حاول توفير جو عام للنجاح بعد الطرد لكنه لم ينجح، ولذلك قرر الانتحار.

ما يخفيه كذلك هو أن حالة الموسيقي المادية جيدة، إنه يملك ملايين الجنيهات الإسترلينية، لكنه يملك القليل مقارنة بأعضاء فرقته السابقين.

ما يخفيه كذلك وهو الأهم، أن تصريحه بأنه الآن أسعد جاء جوابا لابنته التي أخبرته بأن زملاء المدرسة سألوها: إن كان أبوها عضوا سابقا في الفرقة الشهيرة؟، فأجابها أبوها بذلك الجواب الرومانسي تسلية لها: إنه سعيد بها وبعائلته.

والصورة الحقيقية هي أنه لا أحد في الغرب لا يتمنى أن يكون في تلك الفرقة، وأن ينال الشهرة والمال الذي عندها، لكن عندما تعجز أن تكون منها، وتبقى معلِّقا قلبك بها، فهذا ما سيسبب لك الألم الدائم، خصوصا وأنت ترى نجاحاتها، وأنك كنت قاب قوسين أو أدنى من ذلك النجاح، لكن بقطع الأمل الزائف تنفتح أمامك آفاق الحياة،

وستبقى إشارات الألم تذكرك بالماضي الأليم كلما رأيت ما تعلق به قلبك، ولا يمكنك أن تخرج من هذه الحالة إلا بالاعتقاد الجازم أن ذلك الطريق كان سيئا، وأن الله قد أراحك منه، ولا أرى صاحبنا يفكر في ذلك.

قيم عديمة القيمة

يقول المؤلف: إن هناك قيما تؤدي إلى خلق مشكلات تكاد تكون بلا حل.

1- المتعة أو الشهوات

يقول المؤلف: المتعة شيء عظيم لكنها قيمة شديدة السوء إذا وضعت أولويات حياتك وفقا لها، ومن يُركز طاقته على المتع السطحية يكون أكثر قلقا واكتئابا وأقل استقرارا عاطفيا، لكنها تُسوَّق لنا على مدار 24 ساعة.

المتعة ضرورية بجرعات صحيحة، ليست المتعة سببا للسعادة، بل أثر ناتج عن السعادة.

إذا حصلت على القيم والمقاييس الأخرى فستحدث المتعة ثانويا بشكل طبيعي.

2- النجاح المادي

يقول المؤلف: إن السعادة مرتبطة بالحصول على الاحتياجات الأساسية، وبعد الحصول عليها يفترقان، فلا داعي لمضاعفة الجهد بعد توفير الأساسيات أملا في الحصول على سعادة أكبر، ولا ينبغي تقديم الجانب المادي على غيره من القيم.

3- أن تكون دائما على صواب

يقول المؤلف: إن أدمغتنا آلات منخفضة الكفاءة.اهـ

وهذا بسبب تأثره الكبير بنظريات التطور والنقائص الموجودة في الإنسان،

والصواب أن أدمغتنا معجزة، وهي مع إعجازها تخطئ، إنها فقط ليست كاملة، بإمكان أدمغتنا حسب دراسة لمعهد سالك للعلوم البيولوجية أن تستوعب كوادريليون بايت، أي رقم 1 وبعده 15 صفرا، وهو ما يوازي سعة الشبكة العنكبوتية، إن الدماغ كالكون كل يوم نكتشف أنه أكبر مما كنا نعتقد.

إن أدمغتنا تعالج المعطيات أسرع مئات الآلاف من المرات من أسرع كمبيوتر على وجه الأرض، لقد أُنفقت مئات الملايين من الدولارات على مشاريع لمحاكاة الدماغ البشري لكنها باءت بالفشل، لقد اقتربت أدمغتنا من صناعة آلات تحاكي 1٪ من عملها، شكرا لك أيتها الأدمغة أنت تؤدين عملا جبارا.

إن أدمغتنا تعمل بطريقة آلية، لكنها رغم آليتها تبدو واعية إلى حد كبير، أما عقولنا فهي خلاصة المزج بين نفوسنا وأدمغتنا، وهي سبب في الكثير من الأخطاء التي نشاهدها، لتدخل العواطف في قراراتها، ولحاجتها إلى إصدار الأحكام دون اجتماع المعطيات، وغير ذلك من الأسباب.

إن في أدمغتنا نقطة عمياء كما في بصرنا، هذه النقطة هي التي يركز عليها المنتقصون، إنهم ينظرون إليها ويتعامون عن كل معجزات أدمغتنا وإنجازاتها.

يقول المؤلف: لكن بعض الناس يحبون أن يكونوا دائما على صواب ويجعلون لذلك قيمة في حياتهم، فيحرمون أنفسهم من التعلم من أخطائهم، ويغلقون باب تفهم الآخرين.

إن افتراض نفسك جاهلا يمنعك من التعلق بالمسلمات الخيالية، ويجعلك في حالة

دائمة من التعلم والتحسن.

4- البقاء إيجابيا

أن تبقى إيجابيا هو أن تنظر دائما إلى الجانب المشرق من الحياة، لكن هذا الجانب قد لا يكون مشرقا بما فيه الكفاية ومع ذلك تجد مطوري الذات متمسكين به، وهو ما يجعلهم أشبه بالمهرجين.

يضرب المؤلف مثالا لسخافة الإيجابيين فيقول: توفي ولده، على الأقل لم يعد مضطرا للدفع مقابل الجامعة!اهـ

لا أظن أن هذا المثال موجود على أرض الواقع، ولا ما يشبهه من أمثلة، وإنما هو من تمادي المؤلف في السخرية من المخالفين.

والحل الذي يطرحه المؤلف هنا هو تغيير قيمك، بما يجعلك تتعايش مع مشكلتك، وهذا يحتاج إلى بحث في نفسك عن القيمة التي جعلتك حزينا وتغييرها.

أما الحل الذي ستجده أقرب إلى فطرتك، وهو الذي تعوَّد الناس عندنا على فعله، هو تلقي المصائب بالصبر والرضا والقبول.

إن الكاتب يخاطب مجتمعا ماديا يؤمن بالمحسوسات، ولا مكان فيه للروحانيات، ولذلك تجده مجتمعا تائها هائما على وجهه يبحث عن حلول لمشاكله النفسية ثم لا يجد.

إن المسلمين يملكون أعلى مستويات الرضا بالحياة حسب دراسة ألمانية أجريت على 67 ألف شخص، والمتدينون هم أكثر الناس سعادة حسب العديد من الدراسات منها استطلاع لمركز بيو سنة 2016م.

إن المؤمنين يعلمون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم،

إنهم يصبرون على المصائب لأنهم يعلمون أنها من أقدار الله، ويصبرون على الابتلاءات والمحن لأنهم ينتظرون من ورائها الأجر، فلا تذهب نفسهم حسرات على ما فاتهم ولا ما أصابهم، خلافا لغيرهم ممن يجزع عند نزول الابتلاءات والمصائب.

يُذكرنا المؤلف بأن الإيجابية الدائمة هي نوع من أنواع الهروب، وأن الانفعالات السلبية هي انفعالات صحية، وأن حل المشاكل يجلب السعادة.

ويعلمنا كيف نتعامل مع الانفعالات السلبية بنوع من الحيلة:

- التعبير عنها بصيغة صحية ومقبولة اجتماعيا
- التعبير عنها بطريقة تتماشى مع قيمك

ويمثل لذلك بأن اللاعنف هو قيمة، وعندما يغضب من أحد فإنه يعبر عن غضبه لأن الغضب أمر طبيعي صحي لكنه لا يعبر عن غضبه بلكم الناس لأن مقياس اللاعنف هو عدم اللكم.

للأسف إنه يدعونا في هذا الموضع لمراعاة مشاعر المجتمع التي تفرض علينا عدم ضرب غيرنا، بينما هو في مواضع كثيرة من الكتاب يدعونا للتحرر من قيوده.

إنه يضع لنفسه مقياسا بشعا يبيح له الإسفاف في الكلام، وقول ما يشاء من فظائع دون أن يشعر بأي تأنيب داخلي. ألم أقل لكم إن عمله قائم بالأساس على تبرير أفعاله المشينة؟.

نقل المؤلف جملة لفرويد يقول فيها: في يوم من الأيام عندما تستذكر ماضيك ستتفاجأ بأن سنوات الكفاح هي الأجمل.اهـ

ذكرني ذلك بجملة كنت أكررها دائما لمصاحبيَّ في السفر عندما تتعقد أمورنا، إن ذاكرتنا تعودت على سفرنا، وإنَّ كثرة الأسفار يُنسي بعضها بعضا، فلا نتذكر منها سوى ما رافقه حدث غير معتاد، إننا الآن نصنع ماضينا وذكرياتنا، لذلك وغيره لم يكن يزعجني أبدا أن تتعطل سيارتنا في طريق نائي منتصف الليل في جو ماطر يرافقه برد قارس، لا أتمنى أن يحدث ذلك لكنه لا يزعجني إذا وقع.

وانطلاقا مما سبق، ومن كلام فرويد يحاول المؤلف مغالطة عقولنا بأن القيم الأربعة السابقة وغيرها تمنعنا من الوصول إلى السعادة على المدى البعيد، لأن بعضا من أعظم اللحظات في حياة المرء لحظات غير ممتعة، وغير ناجحة، وغير معروفة لأحد، وغير إيجابية أيضا.اهـ

هل يريد منا أن نشقى مثل أونودا كي نحظى بذكريات سعيدة، إن الخلط كبير والفرز يحتاج إلى كلام كثير، يضيق المقام عن مثله، ولذلك ألخصه في أفكار محددة:

- توجد قيم سيئة وقيم جيدة وقيم مطلقة لا يصح أن تُقيد بأي من الوصفين إلا بعد النظر فيما يحيط بها، فإذا كانت مطلوبة لغرض سيء ساءت، وإن زادت عن حدها ولم تكن بقدرها ساءت كذلك.

- إن تعرض مخطوفين لرحلة ممتعة مليئة بالمغامرة، لا يجعل التعرض للخطف شيئا إيجابيا يبحث الناس عنه.

إن تولُّد السعادة من شيء مطلوب أو مرغوب هو الشيء المعتاد، وخاصة إذا انضبط ولم يتعارض مع القيم، وأما تولدها من آلامنا ومن فشلنا ومن اللحظات غير الممتعة في حياتنا فهو شيء نادر أو قليل، فلا يُعقل والأمر كذلك أن نبحث عن السعادة في موطن

تقل فيه، ونتركها في الموضع الذي سنجدها فيه.

- إذا كانت الإيجابية نوعا من الهروب فإن تغيير القيم لتتوافق مع فشلنا هو هروب من الواقع، وجري وراء سراب يمكن أن يفنى عمر الإنسان دون أن يحققه، فأي فائدة في البحث عن شيء غير مقدور عليه.

تعريف القيم الجيدة والسيئة

يقول المؤلف: إن القيم الجيدة تكون قائمة على الواقع لا خرافية، هادفة اجتماعيا لا مدمرة، آنية يمكن ضبطها والتحكم فيها، ومثل لذلك بالصدق، ومثل للجانب الآخر بالشهرة، فإذا كنت تريد أن تحضر حفلة وتكون أكثر شعبية فيها فإن معظم ما سيحدث في هذه الحفلة سيكون خارجا عن سيطرتك، كما أن آلية قياس الشعبية غير موجودة وبالتالي فالقيمة غير واقعية.

يحاول المؤلف بعدها أن يضع قواعد عامة للقيم وهذا جيد، لكن محاولته ابتدائية مليئة بالعيوب يلزمها سنوات من التنقيح حتى تنضبط، وقد لا يكون لها ضابط بعد كل تلك السنوات.

يقول بعدها إن القيم الجيدة هي التي تكون داخلية ولا تحتاج إلى شيء خارجي لا يمكن التحكم فيه، كما أن الأهداف يجب أن تحمل قيما مستمرة، فمن كان هدفه شراء بيت وسيارة فإنه بعد الحصول عليهما سيشعر بالخواء، ويمر بأزمة منتصف العمر، ويتوقف عن النمو والتطور[1].

(1) تم الدمج بين كلام المؤلف في هذا الموضع وكلام سيأتي لاحقا.

يقول كذلك: إن القيم السيئة تمنحك المتعة لكنها خارجة عن سيطرتك، وغالبا تحتاج هدما اجتماعيا أو خرافات لتحقيقها.اهـ

يظن نفسه قد أتى بشيء جديد، بينما هو يعيد فقط ضوابطه للقيمة السيئة.

ثم يذهب المؤلف إلى وجوب ترتيب القيم، لأن ترتيبها مهم، وهو الذي سيحدد طبيعة أفعالك.

يعود مرة أخرى إلى أونودا ساخرا من أفعاله، ويربطها دائما بالولاء للإمبراطور أو الإمبراطورية، ويختم بقوله: لن يبادله أحد منا بنعله ولن يمتدح أحد منا أفعاله.

لكن الحقيقة هي أن أونودا لو كان أمريكيا لكان بطلا قوميا مثالا للهوية الأمريكية لكنه ياباني وهذا هو عيبه، ألا أدلك أيها المؤلف المحترم على ما هو أشنع من ذلك، وأفظع: قنبلتان نوويتان تلقيان على مدنيين فتهلك الحرث والنسل، على مدى عشرات السنين، مجازر أمريكية في فيتنام وأفغانستان والعراق وغيرها من البلاد، يُكرَّم بعدها قتلة المدنيين وتُخلَّد أسماؤهم، ثم لا نجدك تتحدث عن شيء من ذلك!!.

هلا حدثتنا عن «بول تيبيتس» قاتل عشرات الآلاف من الناس بضغطة زر، وعن القيم التي كانت عنده عندما ألقى القنبلة، وعن شعوره الآن، وهل كنت لتبادله بشسع نعل؟!.

يقول «تيبيتس» قبل وفاته إنه لا يمانع من إلقاء القنبلة مرة أخرى، لأنه كان يهدف إلى إنهاء الحرب، لم أعتذر قط ولن أعتذر أبدا، ويقول بعد أن ألقى القنبلة ورأى الوهج وتذوق طعم الرصاص: لقد شعرت بارتياح كبير.

يا له من مجرم يستحق أن يلقي عليه المؤلف نظرة، ليستخرج من حياته الكثير من

التفاهة بدل البحث في سجل أونودا.

ويقول زميله «أجنو»: أعتقد أنه لا يوجد مدنيون أبرياء، الجميع يساهم في الحرب.

رائع جدا ها أنت الآن تملك مجموعة من الحمقى أصحاب القيم المحرفة لتضرب بهم الأمثال.

أليس «تيبيتس» هو أكبر مثال يمكن أن يجده المؤلف للقيم السخيفة، والأفعال الشنيعة التي يصر المرء على إيجاد تبريرات لها؟! ولو فعل ذلك لكان عمله سيصبح أكثر واقعية، وأشد تأثيرا في نفوسنا.

يقول «ألبري» أحد المشاركين في الجريمة، والذي عاد إلى المنطقة بعد أيام: رأيت ظلا على الحائط بالتأكيد كان هناك رجل يمشي بجانب هذا الحائط عندما انفجرت القنبلةاه. يا للهول!!.

مهما كانت المبررات الأمريكية سائغة عند جماعة منهم، فإن هؤلاء المفتونين لا يمكنهم تبرير عدم تحذير المدنيين مع القدرة على ذلك.

الأمثلة من التاريخ كثيرة وكلها فظيعة، عندما تقتل بدم بارد، وتجد المبررات لذلك، ولا أحد يستطيع أن يعترض.

يعود المؤلف مرة أخرى إلى «موستين» ليصوره لنا رجلا بلا هدف في الحياة، يعيش حياة تعيسة، وينتظر لحظة انتصاره على فريقه القديم!! وعلى عكسه «بيست» غيَّر قيمه فتمتع بحياة سعيدة!!.

كان المؤلف قبل مباحث يحدثنا عن فساد الأبحاث لعدم وجود آلية لقياس تقدير

الذات، لكنه الآن يقيس السعادة بجملة عابرة اقتنصها أو اقتصها من حوار، وفهمها على غير وجهها.

يمكنه الآن أن يجيبنا عن هذا السؤال: هل يمكن أن نقيس السعادة بإخبار الناس عن أنفسهم؟!.

توضيح

في آخر هذا الفصل يذكر المؤلف توضيحا مُهما يعطيك تصورا لما سيأتي في الكتاب، وهو يعكس عدم تقسيم الكتاب تقسيما جيدا يعطي للقارئ تصورا عاما عما ورد فيه بدل حشر مجموعة من العبارات آخر الفصل من قرأها فهم، ومن تجاوزها كان كالأطرش في العرس.

يقول المؤلف: تطوير الذات يدور باختصار حول: وضع القيم الأفضل في موضع الأولوية، واختيار أشياء أفضل لتمنحها اهتمامك.

سيذكر المؤلف في بقية الكتاب خمس قيم غير معتادة هي أكثر القيم فائدة في نظره، هذه القيم سلبية، وهي تسير وفق القانون التراجعي، وتتطلب مواجهة مشكلات أكثر عمقا بدلا من تجنبها:

- أنت في حالة اختيار دائم: تحمل المسؤولية عن كل شيء يحدث في حياتك بصرف النظر عمن هو ملوم فيه.
- أنت مخطئ في كل شيء وأنا كذلك: عدم اليقين إقرارك بجهلك، وممارستك الشك الدائم في معتقداتك.
- الفشل طريق التقدم: الفشل استعدادك لاكتشاف العيوب والأخطاء لتحسينها.

- أهمية قول لا: الرفض: القابلية لقول أو لقبول لا، وهو ما سيساعدك لتحديد ما تريده وما لا تريده في حياتك بوضوح.

- وبعد ذلك تموت: التأمل في حقيقة كونك لست خالدا وهو الشيء الوحيد الذي سيساعدنا في وضع قيمنا الأخرى في إطارها الصحيح.

قلت: لم يظهر لي في هذا الموضع أن جميع القيم التي ذكرها هي قيم سلبية خاضعة للقانون التراجعي، ولست أجزم بذلك فلعلي لم أفهم مقصده، ولذلك سأنتظر آراء القراء للوصول إلى فهم أدق.

الفصل الخامس: أنت في حالة اختيار دائم

كثيرا ما نفعل أشياءً نختارها بحرية، ونتقبل الألم الذي فيها بكل سعادة، وكثيرا ما نفعل أشياءً نحبها، لكن عندما تُفرض علينا نحس بالألم ونحن نفعلها.

قد يكون الفعل واحدا لكن الآداء والإحساس المرافق له يكون مختلفا، هنا سعادة وإقدام، وهناك ألم وعدم قدرة، ولذلك يرى المؤلف أن أول الحلول لمشكلاتنا هو أن نختارها حتى نمنح أنفسنا قوة للفعل.

اختيار

ذكر المؤلف فيها قصة «وليام جيمس»، وأنه كان فاشلا في الحياة رغم توفر العديد من فرص النجاح له، وفي لحظة ما كان يريد أن ينهي حياته لكن قراءته لمحاضرات فيلسوف شهير جعلته يعطي نفسه الفرصة الأخيرة، لقد قرر أنه سيكون مسؤولا عن كل ما حدث في حياته، بغض النظر عن السبب الحقيقي، وسيفعل كل ما في وسعه لتغيير ظروفه بغض النظر عن احتمال الفشل.

لقد كانت ولادة من جديد كما سماها، أصبح «وليام» أب علم النفس الأمريكي، وتُرجمت أعماله إلى عشرات اللغات...إلخ.

في القصة التي ذكرها الكاتب الكثير من المغالطات: لم يكن «وليام» فاشلا كما يصوره المؤلف لقد كان شابا بِهمَّة عالية، لكنه كان مصابا بمرض روحي كما كان يسميه، لقد نجح «وليام» في الفترة التي يعتبرها المؤلف فترة فشل في الحصول على تعليم كاف

مكنه من الكتابة في المجلات العلمية العالمية، لقد رافق وليام الكثير من كبار علماء عصره وشهد أبحاثهم عن قرب ودرس الكثير من العلوم التي مكنته لاحقا من صياغة مسائله في علم النفس التجريبي، والأكثر من ذلك في الفترة التي أوهمنا المؤلف أنه كان فيها فاشلا حصل على الدكتوراه في الطب سنة 1869م، فيا له من فشل يتمناه كل أحد، لقد كان يتنقل بين التخصصات لأنه لم يجد ما يرتاح إليه، لقد كان يعاني من اكتئاب شديد وأزمات نفسية لكنه لم يكن فاشلا ميؤوسا منه كما يصوره المؤلف.

بقي في عزلة ما بين 1869-1872م يعاني من الكآبة والهلع والهلوسة والخوف من الجنون لكنه كان لا يتوقف عن مطالعة الكتب ومحاولة إيجاد مخرج لحالته الروحية والنفسية، وربما كانت بداية التغيير في حياته في 29 أفريل سنة 1870م عندما قرأ مقالات لتشارلز رينوفييه وليس لتشارلز بيرس كما توهم المؤلف، أقول ربما لأنه لا توجد أي إشارة إلى أن هذه القراءة جعلته يتغير فقد استمرت حاله كذلك مدة عامين بعدها، وبدت حياته متعثرة بعد ذلك لسنوات أخرى، لكن هناك رسالة وجهها إلى رينوفييه سنة 1872م تُبين تأثره بفلسفته وأنه انطلاقا من هذا التأثر بدأ تجربة ولادة جديدة للحياة الأخلاقية أو الروحية.

لقد كان مقال رينوفييه يتحدث عن الإرادة الحرة في زمن كان التوجه العلمي السائد هو الجبرية والحتمية، يقول رينوفييه: إن بقاء فكرة في الذهن وطرد ما سواها هو بفعل الإرادة الحرة.

لقد جعلت هذه الفكرة «وليام» يقرر أن يختبرها عمليا لقد قرر كأول خطوة حرة يفعلها أن يؤمن بالإرادة الحرة، ويعيش بهذه القناعة عاما كاملا ثم يتأمل في النتائج هل

سينتصر على الحتمية البيولوجية والاجتماعية أم سيبقى عبدا لها؟ لقد قرر أن يعتمد على ذاته ويثق في نفسه أكثر، كان يعتقد في السابق أن الانتحار هو الفعل الوحيد الذي يقدر عليه، وهو الآن حر بإمكانه أن يفعل بإرادته.

كما ترى أيها القارئ الكريم فما كان يعانيه وليام ليس هو ما صوره المؤلف، والفكرة الفلسفية التي خلص إليها لا علاقة لها بما يودُّ المؤلف أن يجرنا إليه من أننا مسؤولون عن كل ما يصيبنا.

لقد ختم المؤلف قصته كالعادة بالتراجيديا: لقد كنتُ فاشلا طوال حياتي، وإذا لم أنجح هذا العام بعد تحمل مسؤولياتي فسأضع حدا لحياتي!! لا أدري أين ظفر المؤلف بهذه القصة ربما في الروايات الخيالية.

يرى المؤلف أننا مسؤولون عن كل ما يحدث في حياتنا بغض النظر عن الظروف الخارجية المحيطة بنا، نحن لا نتحكم في الظروف لكننا قادرون على التحكم بكيفية تفسيرنا لما يحدث لنا، والتحكم في كيفية استجابتنا له.

سواء أواجهنا الأحداث أو فررنا منها فقد اخترنا طريقة للتعامل مع الحدث، وسواء أفسرنا الحدث تفسيرا صحيا أو مرضيا فقد تدخلنا في سير الأحداث بكوننا مسؤولين عن أثرها علينا.

مغالطة المسؤولية/ الذنب

يقول المؤلف: كلما اخترنا قبولا أكبر للمسؤولية في حياتنا كلما زادت القوة أو السلطة التي سنمارسها عليها، وبالتالي فإن قبولنا للمسؤولية عن مشكلاتنا هي الخطوة الأولى لحلها.

وقد استخرج المؤلف هذه القاعدة العامة من عبارة شهيرة كان يكررها الرجل العنكبوت ومعناها: كلما زادت القوة زادت المسؤولية، وسيقوم الآن بالتأكيد على هذا المعنى:

ذكر قصة رجل قصير القامة جدا متعلم حسن المظهر[1]، يرى عدم جاذبيته في قصره، فهو كلما تقدم لفتاة ورأى أي سلوك لم يعجبه منها، اعتبر ذلك رفضا له، وكان يرمي باللائمة على جماعة النساء اللواتي يتعاملن مع الموضوع بسطحية.

واستخرج من القصة أن الرجل اختار القيمة التي تجعله خاسرا، لقد اختار أن قصر القامة مرفوض في عالم النساء، وحكم على أي إقدام منه بالفشل، كان بإمكانه أن يختار قيمة أخرى يقيس بها لكنه لم يفعل، لعله لم يدرك أن بإمكانه اختيار قِيَمِهِ، لقد كان هو سبب مشكلاته، ورغم ذلك هو يُحمِّل غيره الذنب.

مرة أخرى يخلط المؤلف، فالرجل قد يكون محقا في استنتاجه لكن خطأه كامن في التعميم، وفي ربطه بين كل سلوك لا يعجبه بالقاعدة التي استنتجها.

لا يهمنا هذا كثيرا ما يهمنا هو: هل يعتبر استنتاج الرجل قيمة؟ والجواب هو: لا، هذه المسألة لا تعلق لها بإرادتنا وقيمنا، وإلا أصبحنا كبعض مطوِّري الذات الذين يدعون الناس للكذب على أنفسهم حتى يصدقوا أنفسهم في النهاية، ويمنحوها القليل من الثقة الزائفة، الصحيح هنا أن يُقال: هل استنتاج الرجل صحيح أم لا؟، إن كان استنتاجه صحيحا فعليه أن يجد حلولا لذلك لا أن يتجاهل القضية، ويتعامل معها كأنها غير موجودة، وإن كان استنتاجه خاطئا فعليه أن يصححه، فهذا المثال ليس له علاقة بالقيم.

(1) تم تغيير محتوى القصة بما يتلاءم مع مجتمعاتنا ولا يُفقدها مدلولاتها.

ينتقل المؤلف إلى نقطة أخرى هي أن بعض الناس يترددون في تحمل مسؤولياتهم لأنهم يعتقدون أن المسؤولية لا تقع عليهم على مشكلات لم يخلقوها هم، وهذا كلام صحيح بديهي لا يخالفه فيه عاقل.

ومثَّل لذلك: برجل خرج من بيته فوجد رضيعا أمامه، لم يكن وجود الرضيع خطأه لكن أي تصرف منه بعد ذلك سواء بالتبليغ عنه أو رميه أو تجاهله سيخلق له مشكلات وسيتحمل مسؤوليتها.

وانطلاقا من ذلك يقول المؤلف: إننا مسؤولون طيلة الوقت عن تجارب لم تكن خطأنا.

ينتقل إلى فكرة أخرى وهي: أن بعض الناس قد يتسببون في إحداث المشاكل لنا، وهم ملامون على ذلك، لكنهم ليسوا مسؤولين عن وضعيتنا.

ولإيصال فكرته يخترع المؤلف مفاهيم جديدة لمصطلحات مضبوطة، فالمسؤولية «Responsibility» للحاضر، وهي ناتجة عن خياراتك الآنية، والخطأ أو اللائمة!! «Fault» للماضي، وهي ناتجة عن الخيارات التي تم إجراؤها بالفعل.

يمكنك أن تلوم أحدهم على وضعيتك لكن لا يمكنك أن تحمله المسؤولية، يمكنك أن تلوم الكثير من الناس على عدم سعادتك لكن لا يمكنك أن تحملهم المسؤولية، فأنت وحدك المسؤول عن سعادتك.

أنت وحدك المسؤول لأنه يمكنك أن تختار القيم التي تناسبك، والمقياس الذي يجعلك سعيدا.

كلام المؤلف جميل ومغر لكن به عيبا شنيعا: إنه يجعل القيم متحركة وغير ثابتة، وبالتالي يمكننا تحريفها وتحويلها كيفما نشاء، لا مكان للدين ولا مكان لإجماعات العقول الصحيحة، لا التزام ولا ضوابط سوى ما تؤمن به أنت وما تراه مناسبا لك.

يضرب لنا المؤلف مثالا آخر، لكنه هذه المرة مثال من تجاربه المرة التي تعطينا تصورا تاما عن الإفلاس القيمي والأخلاقي الذي يعيشه الغرب، إنهم في هذا الجانب مجرد بهائم تترافس، لقد أعطتهم الحرية الزائفة مجالا لأن يعودوا إلى أصلهم الأول كما هو اعتقادهم حيوانات بلا ضوابط أو قيم.

لقد كان يخون مع خائنة خانته، وعندما واجهها بخيانتها له تركته، فانهار شهورا مدمنا على الكحول والكآبة والترجي لها بالعودة إليه، وبعد مضي الزمان الكافي لمسح أي آثار لأي حدث مؤلم قرر أن يعود سعيدا، بدل انتظار عودتها التي لن تحدث.

هذا كل ما في القصة، لا يوجد تحمل للمسؤولية، ولا قوة متولدة عن هذا التحول.

مرة أخرى يقول المؤلف: إن لهذه القصة أثرا كبيرا في حياته، وإنها جعلته يتطور، إنه يتطور دائما وهذا جيد، لكنه يربط تطوره دائما بالنكبات، ويعتقد أنه لا يستفيد من نجاحاته، ما لا يدركه صاحبنا هو أن التغييرات التي تحدثها النجاحات غير معتبرة لأنها تسير في إطارها العادي، بإمكانك أن تترقى في وظيفة فتتغير معها حالك وصفاتك لكنك لا تنتبه إلى هذه التغيرات، أو لا تخرجها عن إطارها العادي، أو لا تتذكرها بعد مدة، وأما التغييرات التي تحدثها النكبات فتتذكرها دائما لأنها تأتي بعد المراجعات، أو تأتي بقرارات حاسمة كنا نتماطل في اتخاذها رغم معرفتنا بأثرها.

يقول أحد المفكرين: ما أسهل الإقلاع عن التدخين لقد قمت بذلك مئات المرات،

يا لها من عبارة معبرة كان عمي من الملتزمين بها أربعين سنة، لكنه تخلى عنها بعد أن مر بحالة صحية عصيبة تقيأ فيها الدم.

لِنبتعد الآن عن مثال المؤلف المقرف، ولنضرب له مثالا من واقعنا المشرقي يثير استشكالات لعل المؤلف يجيب عنها فترسم له صورة أوضح لفكرته:

رجل مشرقي كان له مال وكان يعيش حياة هنية، بين أهله وعشيرته، دخلت قوات الاحتلال، فقتلت وسجنت أبناءه واغتصبت وشردت أهله، وأنهكت جسده، ونهبت وأتلفت ماله، ودمرت بيته، ولا زالت قابعة فوق صدره تشعره في كل ثانية بأنه عبد مملوك.

والأسئلة التي تنتظر الإجابة هي كالتالي:

هل يفترض بهذا الرجل أن يبقى سعيدا؟ وهل هو مسؤول عن تعاسته؟ ما هي المدة التي يمكنه أن يحزن فيها؟ وما هي الجرعة المناسبة من الحزن التي يمكنه أخذها فالحزن كما تعلم من طبيعة النفس البشرية ولا يجب علينا أن نكبحه؟ هل يمكن للمرء أن يكون سعيدا إذا اجتمعت عليه الآلام؟ وهل يكفي التفكر في حتمية الموت لرفع الآلام أم يجب الإيمان بالحساب؟ وهل تحمل المسؤولية مقتصر على أحوالنا النفسية؟.

الاستجابة للمأساة

يقول المؤلف: إن بعض الناس يحسنون التعامل مع مشكلاتهم اليومية لكنهم يتوقفون عن مواجهة مشكلاتهم المرعبة، هم ليسوا مسؤولين عن تعرضهم للسرقة مثلا لكنهم مسؤولون عن آثار أي ردة فعل منهم.

ينقل المؤلف قصة ملالا الباكستانية الحائزة على نوبل للسلام لسنة 2014م، ويقول: يبدو أن إطلاق النار عليها أعطاها جمهورا وشجاعة أكبر، كان من السهل عليها أن تنبطح أرضا، وتقول لا أستطيع أن أفعل أي شيء، وسيكون اختيارها أيضا.

لكنه يضيف إلى تلك القصة شيئا من البهارات لتتلاءم مع ما يطرحه وما يريد أن يوظفها فيه، يقول: إن المسلح لم يكن يعرف ملالا، وهي التي عرفت عن نفسها، لأنه قال: إن لم تدلوني عليها فسأطلق النار على الجميع، وعلق على ذلك بقوله: خيار مدهش فعلا!!اهـ. لكن الحقيقة هي أن الأطفال بعفويتهم التفتوا إليها جميعا.

لقد كتب المؤلف أفكاره عن هذا الموضوع على مدونته فجاءه رد عنيف من رجل فقد ابنه في حادث سير، ولم يتقبل أن يكون مسؤولا عن الألم الذي كان يشعر به.

أكد المؤلف في الكتاب أن الرجل مسؤول، وأن الألم هو اختياره، لكنه في المدونة اكتفى بالرد: إن خسارة ولدك تؤلمني.

لا أدري ما سبب زيادة هذه الصفحات، فقد أعلمنا المؤلف سابقا أننا من يختار ردة الفعل حتى مع المشكلات المرعبة، ولو افترضنا أنه يريد تأكيد هذا المعنى فإنه لم يفعل شيئا من أجل ذلك، فالفتاة اختارت وكان يمكنها أن تختار العكس، والرجل اختار وكان يمكنه أن يختار العكس.

وما فعلته الفتاة من مقاومتها لدعاة عدم تعليم الإناث كان يمكن أن يؤدي بها إلى قبر منسي بلا شاهد، وهو ما يحدث في العادة لمن يقاوم قوى أكبر، وأما وصولها للعالمية قبل ذلك وبعده، فهو مجرد ضربة حظ نصرته اللوبيات العالمية التي ترفع كل ما يخدم أهدافها، ويصب في مصلحتها.

والأمثلة كثيرة في عالمنا العربي والإسلامي لنساء وفتيات قاومن الاضطهاد الواقع في بلدانهن، وبحثن عن العدل والحرية، فتعرضن لأشد أنواع التعذيب والقهر، وانتهت حياتهن بالقتل أو الإعدام أو بسنوات طويلة وراء القضبان، ولم يخلد أسماءهن العالم ولا حتى أبدى التعاطف معهن، إنما يسارع العالم للتعاطف مع كل داعية للتحرر من الدين والقيم المجتمعية سواء بحق أو بباطل.

فلنترك عالمنا الشرقي المضطهد ولنختر قصة من عمق أو قلب أوروبا حيث نشأت فتاة ثرية تدعى نورا إيلي، ابنة طبيب نفسي ألماني وأم سويسرية، عاشت الفتاة سنواتها الأولى متقلبة بين العقائد والأفكار والمذاهب إلى أن اهتدت للإسلام وهي ابنة 18 سنة، ارتدت النقاب ودافعت عن الحق في ارتدائه، ودافعت كذلك عن العديد من القيم الإسلامية، وحاربت الإسلاموفوبيا، واستطاعت مع غيرها أن توقف قانون منع النقاب في سويسرا، لقد كانت امرأة شجاعة صاحبة فكر حملت على عاتقها رسالة أمة، فماذا كانت النظرة الغربية إليها؟.

لقد اعتبر المجتمع الغربي أفعالها تعديا على قوانينهم، واتهموها بإثارة المشاكل وحاربوها في كل مكان، لم ترشح نورا لأي جائزة مهما قل شأنها، ولم تكرَّم في أي محفل، وإنما كان مصيرها الملاحقة الأمنية والمنع من إقامة الأنشطة، وتعرضها للاستهزاء والإهانة في الطرقات، ومحاصرة ظهورها الإعلامي في كثير من الدول الأوربية المتحضرة رغم كونها شخصية عامة.

لقد أثار ظهور لها نادر على القناة الأولى بالتلفزيون الألماني (ARD) موجة من النقد

الساخط بين العامة وكثير من الشخصيات، يقول الأمين العام للحزب الحاكم: إن هذا الظهور على القناة خطأ جسيم.

إن ما تؤكده هذه القصة هو أن للغرب عينان، عين الرضا التي ترفع كل من سار على نهجه، وعين السخط التي تحارب وتشنع على كل من خالف قيمه.

نعود للمؤلف بعد هذا الاستطراد الطويل، لقد زعم في مثال الرجل المعترض عليه أنه طبق على المشكلة النصائح التي يقدمها في كتابه، لكنه في حقيقة الأمر لم يقدِّم حلا للمشكلة، وقرر بدل ذلك الانسحاب من أرض المعركة دون أن يدافع عن فكرته، ومحاولا إقناعنا أنه فعل شيئا ولم يتصرف تصرفا سلبيا، ألا يكفيه في السلبية زعزعة ثقة قرائه بفكرته؟!.

العوامل الوراثية والحظ

نقل لنا المؤلف قصة ستة شباب مصابين بالوسواس القهري خضعوا لمخيم علاجي تابع لهيئة الإذاعة البريطانية استمر 15 يوما خلاصته كما يصورها المؤلف:

- على المرضى تقبل المشكلات التي تنتجها اضطراباتهم، فإذا كان الوسواس يقول: إذا لم تغسل يديك فستموت، فالخطوة الأولى هي أن تتقبل فكرة الموت وأنك لست سببا فيها.

- بعد أن يعرف المرضى أن قيمهم غير عقلية، يستبدلونها بقيم أخرى أكثر أهمية.

كانت البداية صعبة إذ ترافقت بموجة من الذعر، لكن في النهاية حصل تقدم ملحوظ عند الجميع.

ومحل الشاهد هنا أن حملك مرضا وراثيا أو عيبا خلقيا كقصر القامة ليس ذنبك،

لكنك تتحمل مسؤولية التصرف حياله.

إن الحياة مثل لعبة البوكر، بإمكانك أن تحصل على أوراق سيئة، لكن خياراتك هي التي تحدد انتصارك أو هزيمتك، وليس بالضرورة أن يفوز أصحاب الأوراق الأفضل.اهـ

هذا تقريب جيد لكنه معيب وعيبه أنه تبسيط مخل لآلية النجاح في الحياة، فالأمر ليس مرتبطا فقط باختياراتنا، إن اختياراتنا هي جزء صغير أو كبير من أسباب نجاحنا، لكنها ليست السبب الوحيد، ولا هي السبب الرئيسي دائما، ففي مثال البوكر يتحدد النجاح كذلك باختيارات الخصم، وفي مثال مخيم الموسوسين يخفي عنك المؤلف أسبابا أخرى مهمة لنجاح المخيم غير متعلقة باختياراتنا، وهي الارتباط بالطبيعة وبالعمل الجماعي، ولك أن تتصور أنه في مخيمات أقيمت لاحقا هي امتداد لهذا المخيم، لم يتم تقديم أي علاج سوى التمتع بالطبيعة والمشاركة في أنشطة جماعية.

يقول المؤلف: إن المرضى عصبيا ووراثيا مسؤولون عما يعيشونه، فعليهم أن يبحثوا عن علاج لهم، وأن يخضعوا للعلاج.

وسؤالي هنا: هل تسقط المسؤولية عنهم بعد ذلك؟ وما درجة الوعي التي هم مطالبون بها؟، وهل يكفي سعيهم لتحسين حالهم أم يلزمهم أن تكون خياراتهم صحيحة؟ وهل يتحمل ناقص العقل والفهم مسؤوليته أم أن هؤلاء لا يدخلون فيمن يتحدث عنهم المؤلف؟.

جواب المؤلف مفزع: هناك أشخاص صاروا ضحايا بكل معنى الكلمة، ومع ذلك

هم مسؤولون عن وضعهم.

ذكر المؤلف أن الوسواس القهري وراثي غير قابل للشفاء، وهذا غير صحيح فالوسواس القهري له أسباب متعددة منها الوراثية، وهو قابل للشفاء، وهناك الكثير من الطرق في علاجه منها العلاج بالتعرض.

لعب دور الضحية

يقول المؤلف: تسمح مغالطة (المسؤولية / الذنب) للناس بالهروب من تحمل مسؤولياتهم من خلال إلقاء اللوم على الآخرين، وهو ما يمنحهم حلا مؤقتا لمشكلتهم، ورضا نفسيا أخلاقيا.

وقد عزز هذا التوجه وسائل التواصل الاجتماعي، حيث سهلت إلقاء اللوم على الآخرين، وجعلته ممكنا حتى على أتفه المخالفات، ووفرت الجو المناسب للأشخاص المظهرين لكونهم ضحايا لكسب المزيد من الاهتمام والتعاطف، مما جعل إلقاء اللوم أكثر شعبية، ومنتشرا بين جميع الطبقات.

وقد استغلت وسائل الإعلام ذلك بأبشع صورة، فأصبحت وسيلة من وسائل الصراع وإلقاء اللوم بين جميع الأطراف المتنازعة، وأصبحت معرفة الضحايا الحقيقيين أكثر صعوبة، لأننا نعتقد لأول وهلة أنهم يتقمصون دور الضحية، فيما يشبه قصة الراعي الصغير الذي ادعى وجود ذئب يهاجمه مرارا، فيفزع الناس لمساعدته فلا يجدون شيئا، فلما هاجمه الذئب حقيقة لم ينجده أحد لأن الناس ظنوا أنه إنذار آخر كاذب.

ثم يقدم المؤلف نصائح في التعامل مع هذه الظاهرة، من خلال التشكك الصحي فيما تنقله وسائل الإعلام، ومن خلال تفهم الآخرين بدل تشويههم، علينا أن نعطي

الأولوية لقيم الصدق والشفافية وإعمال الشك في قيم سلبية كأن تكون محقا أو راضيا دائما أو باحثا عن الانتقام.

لم يقدم المؤلف في هذا المبحث أفكارا ولم يعرض شيئا جديدا أو ذا قيمة، سوى الكلام عن انتشار ظاهرة لعب دور الضحية في وقتنا الحالي، وبيان أهم سبب لذلك.

إن لعب دور الضحية يجلب تعاطف الناس، ويُمكِّن المدعي من التنكيل بخصمه، وجلبِ فوائدٍ مادية ومعنوية كبيرة.

قبل سنة من الآن ادعى ممثل أمريكي تعرضه لاعتداء عنصري، وعند التحقيق في القضية ظهرت إشارات لفبركته القضية، وأنه دفع أموالا لشخصين يعرفهما للاعتداء عليه، وأن غرضه من ذلك كان جلب التعاطف، وكسب الشهرة، وزيادة راتبه، تم تبرئته في الأخير، لكن ملابسات القضية تشير إلى إبرام صفقة مع العدالة، لا يهمنا وجود الصفقة من عدمها، ما يهمنا هو أن هذه الحادثة أثارت الحديث مجددا عن ظاهرة لعب دور الضحية.

وفي الأردن قبلها بعام تعرض أمين عام إحدى المنظمات التشكيكية في الدين إلى اعتداء وحشي بعد حملة تهديدات، تبين لا حقا أن الاعتداء كان مفتعلا، وأن السبب من ورائه قد يكون البحث عن التعاطف والشهرة.

لا تطرح علي السؤال: كيف؟

إذا عرفت أنك اخترت القيم السيئة فسيحدثك المؤلف في كلمات عن بساطة تغيير القيم، فأنت طوال الوقت تختار، وكما يمكنك اختيار الشيء المعتاد يمكنك اختيار

نقيضه، لكنه لن يجيبك عن كيفية تغيير اختياراتك.

الشيء الذي يؤكده المؤلف أنه عند بداية مخالفة عاداتك ستجد صعوبة كبيرة في التأقلم مع الوضع الجديد، ستحس بالفشل والغباء والتوتر والذعر وعدم اليقين فيما تفعل... إلخ، وكل ذلك حسب رأي المؤلف طبيعي، بل عدم اليقين هو شيء حسن!!.

الفصل السادس:
أنت مخطئ في كل شيء وأنا كذلك

بدأ المؤلف بسرد أخطاء شهيرة، وخرافات آمن بها الناس قديما ثم تبين لهم زيفها، وهي اليوم مثار للسخرية، ثم ذكر الكثير من الخرافات التي آمن بها وهو صغير والتي عند كل واحد منا حقائب مليئة بها، لقد كنا نعيش في عالم سحري كل شيء فيه ممكن، عالم تقصر فيه المسافات وتتجسد المعاني وتتحقق الخرافات، إنه ببساطة عالمنا الطفولي الرائع الذي نفتقده بقية عمرنا رغم كونه عالما لا منطقيا.اهـ

لعل هذا المدخل فيه تلاعب كبير بالعقل المنطقي ومحاولة لمغالطته، يمكنني أن أسرد لك عشرات الآلاف من الحقائق التي آمن بها الناس منذ عشرات أو مئات أو آلاف السنين ولا زالوا يؤمنون بها إلى اليوم، إن وجود أشياء اعتبرها الناس في القديم حقائق علمية لا يلزم منه أن أكون مخطئا الآن.

إن الحقائق لا تتغير، الذي يمكن أن يتغير هو النظريات والفرضيات العلمية، مشكلتنا تكمن في تعاملنا مع الفرضيات والنظريات على أساس أنها حقائق.

ينتقل المؤلف إلى مراهقته فيحدثنا عن أشياء كثيرة أخطأ فيها، بعض هذه الأشياء في نظره ناتجة عن تفكيره التقليدي:

- الاهتمام بأشياء أكثر من اللازم، رغم أنه كان يدعي عدم اهتمامه بأي شيء.
- الاهتمام بنظرة الناس إليه، مما جعلهم يتحكمون في عالمه دون أن يشعر.
- اعتقاده أن الحب شيء عفوي لا يحتاج لأن تعمل له.

وختم كلامه عن الأخطاء بقوله: إنه كان مخطئا في كل خطوات طريقه، ويأمل أن يستمر هكذا بقية حياته!!اهـ.

وهذه عبارة غريبة ظاهرها التمادي في استثارة الانتباه باستدعاء النقيض بدل التوسط الذي هو المقصود عند التحقيق، أو هي من الأخطاء المتعلقة بإلقاء الكلام على عواهنه دون اعتبار لمطابقته للواقع، وهي موجودة في كثير من المواضع من الكتاب.

يقول المؤلف: إنه سيكون سعيدا في المستقبل إذا نظر إلى حاضره، ولاحظ عيوبه وأخطاءه، لأنها علامة على التطور.

قلت: لم يستطع المؤلف أن يوصل فكرته دون أخطاء، والصواب في هذا الموضع أن يُقال: إن وجود الأخطاء علامة على النقص، وهو أمر سيء لا ينبغي أن يكون، ولا يلزم منه اليأس أو الفشل، وإن تصحيح الأخطاء هو الطريق للتطور.

ويقول كذلك: إننا لا ننتقل من الخطأ إلى الصواب، بل ننتقل من الخطأ إلى خطأ أقل منه.

لعل هذه العبارة هي أخطر العبارات التي ذُكرت في الكتاب، وهي ليست من بنات أفكار المؤلف، وإنما هي مذهب فلسفي يوناني قديم خلاصته التشكيك في كل شيء، فلا حقيقة مطلقة، وكل شيء نسبي، أي: راجع لنظرتك إليه.

وفي الجواب على المؤلف أقول: من أي زاويةٍ نظر المؤلف؟، إن كانت من وجهة نظر داخلية فإن معتقداتنا متنوعة وهي لا تحمل نفس القوة فبعضها صحيح في نظرنا، وبعضها يعتريه الشك، وأحيانا يكون جانب الخطأ فيها غالبا ومع ذلك نعتقدها، وأما

من وجهة نظر خارجية فإن الانتقال يحتمل أشكالا متعددة منها الانتقال من الخطأ إلى الخطأ الأكبر منه، ولهذا فإن قول المؤلف بأننا نرتقي وهمٌ منه، بل نحن نتقلب بين الارتقاء والانحدار والثبات.

وأما في الرد على المذهب الفلسفي فهناك العديد من الكتب التي اهتمت بذلك، فعلى سبيل المثال توجد رسالة صغيرة يمكن قراءتها في ساعة عنوانها: «نسبية الحقيقة في الفكر الليبرالي».

وفي كلمات قليلة موجهة لكل مؤمن، إننا نحتاج إلى اليقين، وبلا يقين لا يوجد إيمان، اليقين مطلوب في المسلمات، والشك ممكن فيما دون ذلك، والعمل يكون باليقين والظن الراجح.

يقول المؤلف بكل صراحة: لا وجود لعقيدة صحيحة، ومع ذلك يتناصح المؤمنون بقراءة كتابه دون التنبيه على ما فيه من سقطات، لا وجود للقيم سوى ما تحدده أنت، يمكنك أن تخلق القيم التي تريد بما يتناسب مع شهواتك وما تقدر على فعله، وستحس بالسعادة عندما تحقق قيمك، هكذا هي الحياة باختصار كما يريدها المؤلف أن تكون، قيم متعارضة متصارعة بعضها على أقل تقدير لا يختلف العقلاء في ضرره.

ينتقل المؤلف إلى نقطة أخرى وهي: وجود أناس مهووسين بأن يكونوا دائما على صواب في حياتهم، وهو ما يمنعهم من عيش تلك الحياة، وضرب لذلك مثلا بعامل يريد أن يترقى لكنه لا يسأل مديره ذلك أبدا، لأنه لا يريد أن يفشل أو يسمع كلمة: لا، ويجد الراحة في قوله: إن مديره سيء.

يقول المؤلف: إن هذا الرجل لا يريد أن يسأل مديره لأنه يخشى مواجهة معتقداته

حول القيمة الحقيقية لما يقوم به من عمل.اهـ

الشيء المؤكد هو أن نفوسنا قد تُخفي عنا أشياء، وأنه من الجيد كشف هذه الأشياء ومعرفة حقيقة نوايانا حتى تستقيم أعمالنا، ولكن الشيء الغريب ها هنا هو أن المؤلف يدعونا للمحاولة، وهو كذلك في كامل كتابه خلافا للفصل الأول الذي حاول فيه تقييدنا: عليك أن تحاول ولا تطلق أحكاما مسبقة حتى تجرب، ولا يوجد شيء يقيني حتى يحدث.

لكن مرة أخرى أقول: إن إطلاقات المؤلف لا تستقيم، والصواب أن يقال: علينا المحاولة وعدم الاستسلام لأوهامنا، أما المحاولات التي تولد ميتة، ولا يُستفاد منها، فيجب تجنبها.

مهندسو معتقداتنا الخاصة

يواصل المؤلف استهتاره بالعقل البشري وانتقاصه من صَنعَتِه، ومن قدرته على الوصول إلى الحقائق، فيبدأ بمثال يُظهر طريقة صنعنا للأوهام، ففي إحدى التجارب يوضع شخص في غرفة بها آلة تحوي أزرارا، ويخبره الباحثون أن هناك طريقة محددة تضيء المصباح، وعليه أن يصل إليها، فيبدأ الشخص بالضغط على تلك الأزرار بطرق مختلفة حتى يضيء المصباح، وعندما يكرر ما فعل يجد أنه لم يُضيء، ولذلك ينتقل تفكيره إلى خطأ في تكرير ما فعله أو إلى تلازم الضغط على الأزرار مع شيء آخر خارجي كحال القدمين أثناء الضغط أو غير ذلك، وربما توصل إلى أنه ليس بحاجة للضغط على الأزرار وأن العامل الخارجي كفيل وحده بإضاءة المصباح، وفي النهاية يخرج كل شخص بآلية

للإضاءة، كان أحدهم يقفز على قدم واحدة، وآخر يقفز ليلمس السقف، وآخر يتذكر سلسلة طويلة من الضغط على الأزرار، لكن في الحقيقة المصباح كان يضيء بشكل عشوائي ولا علاقة له بما يفعله المختَبَرون.اهـ

فماذا تفيدنا هذه التجربة؟

نستفيد منها أننا بارعون في صناعة الأوهام، وهذا صحيح، وقد تعرضت لجوانب من هذه المسألة في كتابي عن تاريخ السحر، عند كلامي عن علاقة السحر بالعلم والدين، وطريقة وصول الإنسان القديم إلى صناعة أفكاره ومعتقداته.

ولم أتمكن من الوصول إلى التجربة لأنظر إليها غضة طرية بدل الاعتماد على المؤلف الذي كثيرا ما يتحفنا بتشويهه للنقول، وما أقوله ابتداء هي أن التجربة تعكس جزءا من الصورة لا كلها، نعم لقد صنعوا أوهاما، لكننا لا نصنع الأوهام بتلك البساطة التي تصورها لنا التجربة، فلا تجزع أيها القارئ، ولا تَسِرْ وراء هذه التهويلات، إن السبب هنا يكمن في وجود حقيقة مؤكدة تتمثل في جزم الباحثين بوجود آلية لإضاءة المصباح، ولولا الجزم لما صنع أي واحد منهم تلك الأوهام.

ثم ما درجة هذا التصديق؟ هل هو مجرد شك يحتاج إلى تأكيد أم هو يقين؟ إن هذا الأمر مهم جدا، ومعرفته تحتاج إلى العودة إلى التجربة.

يقول المؤلف: إن أدمغتنا عبارة عن آلات للمعاني، يتم صناعة المعنى من خلال ربط تجربتين أو أكثر ببعضها.

وقد توسع قليلا في شرح هذا الكلام لكنه لم يوفق إلى نقل صورة واضحة، ولا أضاف إضافة نافعة للعلوم، ولذلك ارتأيت أن أترك نقد كلامه في هذا الموضع، وأنقل

بدل ذلك كلاما تأصيليا عن آلية عمل العقل من كتاب أُعدُّه في المنهجية:

يطلق لفظ العقل وتختلف مقاصد القائلين من وراء اللفظ: اختلاف في المفهوم واختلاف في الوظيفة والغاية.

وزبدة القول أن العقل هو القياس على المدركات، والعاقل من تصدُق قياساته، فالأصل التصور الصحيح للمقاس والمقيس عليه، ثم وجود قاعدة بيانات للمدركات تتفاضل بالكبر والتنوع (الذاكرة)، ثم القدرة الغريزية على الوصول السريع إلى العينات المشابهة أو المخالفة (الاستحضار)، ثم القدرة على التمييز الدقيق بين المتشابهات والمختلفات -في سلم غير محدود الدرجات- والقياس عليها، ثم عدم التأثر بالمؤثرات الخارجية التي تصرف الإنسان عما خلص إليه عقله.

يعارض العقل طائفتان من الناس على طرفي نقيض، الأولى: طائفة الملاحدة بمحاولتهم القضاء على البدهيات العقلية، فكل شيء عندهم نسبي، بينما الشيء النسبي هو وجود عقول في رؤوسهم، كتب أحد أشهر الملاحدة الفيزيائيين على قميصه 2+2=5 يبيح لعقله بفعله هذا أن يجيز كل شيء إلا أن يجيز وجود إله، وهذا قمة التناقض العقلي، والثانية: طائفة تدعو للتسليم لرجال لم يعصمهم الله، وأقوال لم تنزل من عند الله، ويحاولون فرض هذا التصور بقوة السلطة الإلهية، فيجمعون المتناقضات والممجوجات وينسبونها للدين، ولأن العقول السليمة ترد هذه الخزعبلات وتقف حاجزا منيعا أمامها، فإنك تجد كبراء القوم يحذرون من العقل وأتباعه تحذيرهم من الشرك أو أشد، فيخلطون المفاهيم حتى صار لا يُدرى أَلعقل نعمة أم نقمة؟.

وبالعودة إلى المؤلف فقد استشعر أن عمله ممل وفيه اجترار للكلام وأنه جالب لشتائم القراء القذرة.

نعم، لقد أصبتني بالضجر ومع ذلك أنا أقاوم أو أكابد حتى أصل إلى آخر الكتاب، وأما شتائمي فلن تصيبك لأن سقف القيم عندي مرتفع، وكما حددت سقفا لنفسك هو اللكم فإن كثيرا من الناس لا ينزلون إلى ما استبحته من الشتم.

يقول المؤلف هناك مشكلتان:

- عقولنا ليست كاملة، ونحن نخطئ في أشياء نراها ونسمعها.

- نحن منحازون دائما للمعنى الذي تخلقه أنفسنا، وحتى إذا رأينا أدلة تنقض معتقداتنا فإننا في معظم الأحيان نتجاهلها.اهـ

أما المقدمة الأولى فصحيحة، وأما الثانية فخاطئة، فالناس متفاوتون في رد الأدلة التي تخالف معتقداتهم فمنهم المقل ومنهم المكثر.

فما النتيجة التي توصَّل إليها المؤلف بناء على هاتين المقدمتين؟.

يقول: إن معظم معتقداتنا خاطئة، وبتعبير أكثر دقة معتقداتنا خاطئة كلها.اهـ

إن هذا الكلام يستحق أن يُضرب به عرض الحائط، فلا هو موافق للواقع، ولا هو نتيجة للمقدمات السابقة.

مرة أخرى إن الحلول العملية هي الحلول المبنية على الاعتدال، والتقدير الآني للموقف، وليست حلولا نظرية تُفصَّل على مقاس واحد فتُفرض على جميع الناس مهما اختلفت شخصياتهم ووضعياتهم، ولئن كان هناك كلام يمكن أن يكون قاعدة عامة في حياة الناس يلبسها كل أحد، فأقواها في ظني عبارة شهيرة في تراثنا مرتبطة بالمسائل

الاجتهادية، وآداب المناظرة، تقول: «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب»، ففي هذه العبارة تأكيد لمعتقداتنا واختياراتنا، وهو ما يسمح لنا بعيش حياة عادية لا هلامية غير محددة الجوانب، وهي كذلك طريق للحط من شأن النفوس المستعلية، وسبيل لإعطاء الخصم حقه، وإتاحة المجال لتأمل كلامه والاستفادة منه.

وفي آخر المبحث يُبيِّن المؤلف الهدف من وراء التخطئة الشاملة لنفوسنا، إذ أنها ستساهم في تغيير حياة الناس، وهو محق في ذلك خصوصا بالنسبة للمصابين بجنون العظمة، ومن يعتقدون أنهم على صواب دائما، لكن فكرته تبقى غير صحيحة.

كن حذرا مع ما تؤمن به

ينتقل المؤلف إلى قضية شهيرة أثارت هلعا كبيرا في أمريكا في ثمانينيات القرن الماضي، وبقيت آثارها إلى أواسط التسعينيات، وقد كنت على اطلاع كبير عليها فهي متعلقة بشكل مباشر ببحثي عن السحر والجماعات الشيطانية، وقد تعامل معها المؤلف كالعادة بأسلوب يخدم أهدافه فنقلها لنا مشوهة.

القصة المشوهة تقول إن صحفية معروفة بعد جلسات علاج نفسي سنة 1988م تبين لها أن والدها اعتدى عليها جنسيا، وعندما أعلنت ذلك للملأ شرخت عائلتها إلى قسمين، وفي سنة 1996م ظهر لها أن أباها بريء، وأنها أخطأت في حقه، فسعت في إصلاح ما فعلته لكنها لم تنجح.

يقول المؤلف: لقد اخترع عقلها تلك الذِّكرى، ولم تكن وحيدة بل نساء كثر فعلن فعلها في تلك السنوات، وأطفال كثر قيل إنهم تعرضوا للإساءة من عبدة الشيطان.اهـ

لكن الحقيقة هي أنه في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ظهرت العديد من الأعمال الأدبية، والتَّاريخية، والوثائقية، والشهادات الحية، تتحدث عن السِّحر والشيطانية، وكان أكثرها تأثيرا رواية: «طارد الأرواح الشريرة» «The Exorcist» التي ظهرت سنة 1971م، وتحولت إلى فيلم سنة 1973م، وترافق ذلك مع ظهور قتلة متسلسلين، وكان آخر هذه المؤثرات كتاب صدر سنة 1980م، وتصدر الأكثر مبيعا، يتحدث فيه مؤلفاه عالم النفس لورنس بازدر وزوجته عن ذكرياتها المخفية، والتي تمكن بازدر من استخراجها، وتتعلق باعتداءات جنسية مروعة على الزوجة المريضة من قبل أعضاء في كنيسة الشيطان.

تحول هذا الشحن إلى هوس بوجود تضحيات، وطقوس جنسية شيطانية في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، مما سبب الذعر في المجتمع، وانتشرت الشكوك والاتهامات والتحريات والمحاكمات في مختلف مناطق البلاد، في بعث جديد للجو الذي رافق صيد الساحرات في العصور الغابرة، كانت الكثير من التهم موجهة إلى دور رعاية الأطفال.

لعبت وسائل الإعلام دورا كبيرا في هذا الهوس، بالإضافة إلى المعتقدات والقراءات الخاطئة التي كان يبثها علماء النفس والقائمة على أن الشَّيطَانِيين بإمكانهم اضطهاد الإنسان، ومسح آثار هذا الاضطهاد من الذاكرة، وأن هذا الكبت لا يظهر إلا بعد جلسات العلاج المغناطيسي أو غيره.

في استطلاع وطني أجري سنة 1993م، ذكر 26٪ من المدعين الذين شملهم الاستطلاع أنهم عالجوا على الأقل قضية واحدة تحتوي على طقوس شيطانية.

وكانت أشهر المحاكمات محاكمة الزوجين كيلر سنة 1991م، واللذين أدينا بـ: 48 سنة سجنا بعد شهادات أدلى بها الأطفال في دار الرعاية التي يديرانها، عن اعتداءات جنسية وطقوس شيطانية مارساها ضدهم، كإجبارهم على شرب الدم.

من أغرب الشهادات أن الزوجين أجبرا الأطفال على حفر القبور، وأنهما نقلا الأطفال بواسطة طائرة إلى المكسيك.

يا للهول طائرات وجرائم قتل وهياكل عظمية وشياطين واعتداءات!!.

هذه الشهادة جعلت الشرطة تقوم بعمليات تمشيط في المقابر بالاستعانة بالأطفال، واستخدمت الطائرات للمسح بالأشعة تحت الحمراء، لأكثر من 11 مقبرة، لكن دون العثور على أثر لتضحيات بشرية، أو استعمالات شيطانية لأجساد الموتى.

خرج الزوجان سنة 2013م وقام أحد المحامين سنة 2015م بمطالبة المحكمة بإعادة النَّظر في قضية الزوجين لعدم توفر أدلَّة الإدانة.

تسببت الأخطاء التي وقع فيها المعالجون النفسيون في اتهام النَّاس بعضهم البعض بارتكاب إساءة معاملة شيطانية مكبوتة، وتطورت الاتهامات في بعض الأحيان إلى جرائم قتل، عشرات الأحكام بالإدانة صدرت بين سنتي 1984م و 1986م، لكن الكثير منها أُسقط لاحقا بعد أن فقد النَّاس الثقة في أساليب التحقيق المستخدمة لاستخراج اعترافات الأطفال، وانتهى الهوس والحكايات الشيطانية ابتداء من سنة 1994م[1].

وقد أطلت في سرد الأحداث لأنها أحداث مهمة يحسن معرفتها لكثرة العبر

(1) انظر: «السحر النشأة والتطور» (ص: 392-393).

المستخرجة منها سواء المتعلقة منها بفهم ذواتنا أو بفهم العالم من حولنا.

وبالعودة إلى المؤلف فإن التشويه الحادث في القصة هو وجود الهوس، ووجود الهوس معناه أننا لسنا في حالتنا العادية، ولذلك فالأحكام المستخرجة منها تبقى استثنائية.

النقطة الثانية هي أن هذه القضية تنقض ما ادعاه المؤلف فقد تبين بعدها أنه يمكن التلاعب بذكريات الأطفال خلافا للكبار، وهو ما أسقط شهاداتهم، وهو يعكس كذلك تطور أدمغتنا أو على الأقل تطور تعاملنا مع من يحاول أن يفرض علينا أحداثا لم نشهدها.

النقطة الثالثة أن الذكريات المستخرجة أغلبها كان عن طريق التنويم المغناطيسي، وهو ما حدث مع صاحبَيْ أول قصة وأشهرها، وهذا يعني أن الإنسان في تلك اللحظة غير مدرك لما يقول، وبالتالي فهو يتلقى ذكرياته بعد انتهاء الجلسة.

النقطة الرابعة هي أن المعالجين النفسيين كانوا يتعاملون مع حالة استثنائية وليست حالة عادية، هذه الحالة هي اعتقادهم وجود ذكريات عند الضحية تعرضت للمسح بواسطة أشخاص مارسوا أفعالا فظيعة على الضحية، وأخفوا أفعالهم من الذاكرة، فهو أشبه بمحاولة إنقاذ مفارق للحياة، يتمسك المعالج فيها بأي قشة لمساعدة الضحية، ويُسقيه أي دواء.

قد يتساءل القارئ الآن: هل نفهم من كلامك أن ذاكرتنا صحيحة دائما، ويمكن الاعتماد عليها؟.

والجواب هو أن الناس يتفاوتون في قوة الذاكرة، وتتفاوت قوة ذاكرة الفرد في حالاته المختلفة، وعلى العموم ذاكراتنا في الغالب صادقة، وتصدق أكثر مع الأحداث

العظيمة، ومع الخطوط العريضة دون التفاصيل، ومع الأحداث القريبة دون البعيدة لأن الأحداث البعيدة تتعرض للنحت على مر السنين.

وليس الخطأ الواقع منها مما يخفى، فلكل منا قصص في ذلك عجيبة: يسمع أحدنا قصة وبعد أيام يحكيها عن نفسه، وأنه كان شاهدا أو حاضرا فيها، ويتذكر الإنسان حادثة قديمة فيتلاعب بها في عقله حتى يحرفها تماما ويخرجها عن إطارها.

وفي المقابل تجد أناسا قد رزقوا بذاكرة قوية يرى أحدهم صفحة الكتاب فيحفظها، ويمشي أحدهم في السوق فيعيد ما سمع من أصوات فيه، وقد كان لي صديق قديم من أعجب الناس في سرد القصص، يحكي لك القصة التي حدثت له، وبعد أيام أو أشهر يعيدها لك في الغالب كما رواها أول مرة دون تغيير في شيء منها، حتى في النسق وفي الأشياء التي لفتت انتباهه، كأنما هو يكتب قصصه ويراجعها كل ليلة، أو كأنما هو ينظر إليها الآن، يحكي لك عن حذاء الرجل الذي التقاه، وعن انطباعه ساعتها وعن الجو وعن الحوار وتفاصيل كثيرة تبدو تافهة ولا نهتم بها في العادة، فإذا كرر لك الحكاية أعاد ذكر نفس التفاصيل ولم يخرج عنها أبدا فلا يحدثك مثلا عن الساعة التي يلبسها صاحبه أو أي شيء آخر لم يحدثك عنه سابقا.

وفي تاريخنا المجيد ما لا يحصى من القصص عن الحُفاظ الذين فاقوا أترابهم:

يحفظ أحدهم مئة ألف حديث، يحدث بها من حفظه، فلا يحصي الناس من خطئه إلا بضعة أحاديث، يا له من شيء رهيب!!.

ويجلس أحدهم مجلسا يكتب الناس فيه ما سمعوا من الحديث، فإذا قُضي المجلس

حدثهم بما سمعوا من حفظه على أكمل وجه، فيصححون كراساتهم ويملأون الفراغات التي تركوها، يا له من حفظ رهيب ومن عقل معجز!!.

ولقد كانت عندي ذاكرة قوية في الصغر لكنها للأسف لم تُستغل على أكمل وجه وتلاشت مع الزمن، لقد كنت أرى الرجل في الطريق لا أعرفه، وأراه مرة أخرى بعد أشهر فأتذكر المكان الأول الذي رأيته فيه، أما اليوم فيلقاك أحيانا الرجل متهللا وجهه لسابق معرفة، فتُقلب صفحات ذاكرتك لعلك تجده مرسوما فيها، فلا تعود منها إلا بخُفي حُنين، فتضطر إلى مبادلته نفس الابتسامة كي لا تجرحه آملا أن تتذكره لاحقا.

يقول المؤلف: إن ذاكرتنا سيئة، ولذلك لا تؤخذ شهادات الشهود على محمل الجد في بعض الحالات في المحاكم.

قلت: من المضحك فعلا أن يستدل المؤلف على ما ادَّعاه بما ينقض دليله: إن استدلال المحاكم بشهادة الشهود دليل على قوة الشهادة، وقوة الذاكرة، فعلى أقل تقدير يمكننا القول غلبة الظن على صحتها، وأما إهمالها أحيانا فليس الأمر بالضرورة عائدا إلى ضعفها، وإنما قد يعود إلى أشياء أخرى كعدم صدق الشهود، ووجود القرائن على الزغل.

ينتقل المؤلف بعدها إلى أن أدمغتنا منحازة بشكل فظيع فهي تقرأ وضعنا الحالي استنادا إلى ما نؤمن به مسبقا، فإذا كنت على وفاق مع أحد فأنت تحسن الظن في أفعاله، وإذا كنت على خلاف معه فأنت تقرأ أفعاله قراءة سيئة.

قلت: ما الغريب في ذلك؟! هناك أناس منصفون وهناك أناس متحيزون ، وهذه لا علاقة لها بعمل الدماغ وإنما بالنفوس، ولولا ذلك لكنا مجرد آلات، ولما خلقت الجنة

والنار، فإذا أردت أن تطور نفسك فارفع قيمة الإنصاف واجعلها من أولوياتك وسيقرأ دماغك الأحداث بعيدا عما تشتهيه نفسك.

وبعد تنظير طويل يحاول المؤلف أن يربط بين تنظيره وما قامت به الصحفية، فقد قامت بهذا الفعل انطلاقا من كونها نسوية مبغضة للرجال مهتمة بقضايا الانتهاكات الجنسية ضد الأطفال، وأخيرا مثلية على علاقة سيئة بأبيها، لقد اختلقت تلك القصة انطلاقا من هذه المقدمات.اهـ

يا له من عالم مقرف مليء بالمرضى النفسيين!!

لا يختلف ما يفعله المؤلف الآن عما فعله أصحاب الأزرار في التجربة السابقة، إنهم يستنتجون علاقات ممكنة ربما من فراغ، نحن على يقين من خطأ هذه العلاقات في تجربة الأزرار، لكننا نحتمل صدق كلام المؤلف لمجرد كون الصدق ممكنا.

فإذا افترضنا صحة ما قاله، فهذه مجرد حادثة -كما ذكرنا مرارا- لا يمكننا أن نبني عليها شيئا، وإنما ندون وقائعها لنربطها مع غيرها من النتائج، وبالنظر في النتائج فإنها متنوعة جدا تنوع نفوسنا، ولكل أسبابه ودوافعه، فمن الهوس الذي يدفع أطفال دار الرعاية إلى اتهام المشرفين، إلى تأثير الأطباء النفسيين في صياغة القصص ونسج الأحداث، إلى رغبات النفوس وأهوائها، إلى غير ذلك من الأمور.

يحدث مثل ذلك في العلاج الروحي عندنا، بل قل يحدث كثيرا، فهناك جهات متعددة تحاول التأثير على الصياغة المناسبة للقصة، فالمريض يحمل وساوس واتهامات لأشخاص مُعيَّنين بالتأثير عليه بالسحر، والمعالج يحمل أفكارا معينة للمرض والصحة،

والعائلة لها تصور للأحداث، ويشترك كل ذلك ليصوغ لنا قصة جميلة بنهاية سعيدة أو أليمة.

لا زلت أذكر قصة عائلة اطلعتُ على حالة مريضتهم فوجدتها تعاني من مرض عضوي أسبابه ظاهرة، ولا يوجد له علاج في زماننا، وإنما علاجه مشترك بين دواء وتغيير نمط حياة وتفكير، فلم يعجبهم ذلك لأنهم يريدون توريط عائلة أخرى في سحر ابنتهم، لقد اضطروا لأن يجلبوا معالجها السابق للتأكيد على أنه سحر!!.

أعود لقصة الصحفية لأعطي القارئ تصورا صحيحا عنها، إنها قصة مؤلمة حقا، وخصوصا اللحظات التي تعتذر فيها من أبيها ثم لا تجد منه أذنا صاغية، لقد صورت ذلك بأسلوب أدبي بليغ يُبكي الحجر.

إن أهم الأسباب التي جعلتها تتهم أباها عيشها بين أناس أو في جو مليء بالاعترافات، ثم وسواس ألقي في روعها، ثم ظهور كوابيس في حياتها تحدثها عن اعتداء أبيها عليها، ثم قراءتها كتابا مشهورا يدعو إلى الشجاعة في التعامل مع الذكريات من أجل الشفاء، ثم إساءة أبيها لها في حياتها العادية ورفضه لشذوذها، ثم في الأخير تشجيع من حولها لها، وخصوصا مستشارها النفسي لتصديق تلك الرؤى.

إنها مريضة نفسية وكان عليهم أن يعالجوها لا أن يوسوسوها، ثم يأمرونها بتصديق تلك الوساوس.

لا أدري كيف يجيز المؤلف لنفسه أن يحكم على بني البشر من خلال مريضة نفسية أو مرضى نفسيين؟!.

ثم أتدري أيها القارئ كيف تعالجت الصحفية من حالتها؟ لقد ابتعدت عن العالم

الموبوء الذي كانت تعيش فيه، وانتهى كل شيء.

إن ما يجعله المؤلف مشكلةً هو في الحقيقة سبب بقائنا وتفوقنا، إنه ببساطة وبكل وضوح سر البشرية.

يختم المؤلف كلامه بقاعدة خطيرة: إن عقولنا عندما لا تجد أي علاقة بين الماضي والحاضر، تخترع في بعض الأحيان ذكريات زائفة من خلالها يمكن ربط تجاربنا الحالية بالماضي المتخيل!!.

ويخلص إلى وجوب تقليل الثقة في أنفسنا لأن عقولنا وقلوبنا غير موثوق بها إلى حد كبير.اهـ

إن مشكلتنا في الحقيقة ليست الثقة المفرطة في أنفسنا، ولا أن عقولنا وقلوبنا غير موثوق بها إلى حد كبير، إن مشكلة كثير منا أننا لا نُقيِّم قدراتنا العقلية تقييما جيدا، نحن متفاوتون في القدرات، متفاوتون في الثقة بأنفسنا، مختلفون في التعامل مع الأحداث، يفتقد أحدنا الثقة بنفسه في موضع هو يقدر فيه، ويثق بنفسه في موضع لا يقدر فيه، فرحم الله امرأً عرف قدر نفسه.

يقول المؤلف: اللايقين هو جذر كل تقدم وكل نمو.اهـ

وهذا صحيح من جهة أن من يفترض أنه يعرف الشيء فإنه لن يبحث فيه، لكن من يشكك في كل شيء لن يصل إلى شيء، لأنه بعد كل تلك المحاولات والتنقيب والبحث لا بد وأن يصل إلى اللايقين، ولو وصل إلى اليقين نقض قاعدته وصار عنده يقين يتكئ عليه، وبالتالي يتوقف عن النمو والتطور.

وخلاصة القول بعيدا عن هرطقات المؤلف: يجب علينا أن نحكم على الأحداث أو أن نفسرها بعيدا عن مشاعرنا ورغباتنا وأحكامنا المسبقة، ولكن ليس بعيدا عن خبراتنا.

مخاطر اليقين المحض

يذكر المؤلف قصة فتاة مثقفة، أصيبت في حادث سيارة، وماتت طبيا لكنها بُعثت من جديد، وأصبحت مهتمة بالجوانب الروحية، واعتقدت أنها قادرة على شفاء الناس، وفهم بواطنهم، ورؤية مستقبلهم، انفصلت عن المؤلف وبقيت تلاحقه، وآخر أخبار هذه الملاحقة أنها آمنت بفكرة تقول إن دخولها في علاقة مع المؤلف سيجعل العالم أكثر أمنا، ولذلك فهي تسعى جاهدة للوصول إلى ذلك.اهـ

يا لها من حيلة سخيفة!! ويا له من سخف أن نصدق أنها مقتنعة أو مؤمنة بما تقول، على الأقل في هذه القضية!!.

يقول المؤلف: إن هذه الفتاة تمتلك يقينا لا يتزعزع، إنه يقين غير عقلاني، وغير صحي.اهـ

إنني أرى هذه الفتاة في عشرات الأشخاص الذين التقيتهم ممن يعتقدون أنهم يمتلكون قوى خارقة توجههم، إنهم في الظاهر يمتلكون يقينا لا يتزعزع بوجود هذه القوى وبأثرها عليهم، لكن عند التحقيق وتتبع كلامهم وأفعالهم يمكنك أن تصل إلى كذب أغلبهم وأنهم مجرد دجالين، وأما أغلب ما تبقى منهم فإنهم أناس ساذجون غالطوا أنفسهم وساعدهم المجتمع في ذلك، يرى أحدهم خطأه وصوابه فيعمى عن الخطأ ويتجاهله، ويُعظِّم الصواب ويُعظِّم معه نفسه، فيعتقد أنها تعرف الغيب، وآلية الكثير منهم في هذا الفعل أنهم يطلقون العنان لأنفسهم، وأي فكرة تمر في مخيلاتهم فإنهم

يذكرونها دون أن يمحصوها في أذهانهم، ويعتقدون صوابها مهما بدت غريبة، وعند التحقيق في أخبارهم تجدهم كبقية الناس في نسبة الإصابة، ولا يملكون أية أفضلية على أي متكهن، وأما البقية وهم أندر من الكبريت الأحمر فلهم حكايات وأحوال غريبة، لا يمكن إثباتها مخبريا كما لا يمكن إنكار وجودها.

ينتقل المؤلف بعدها إلى أبحاث العالم النفسي باومستر عن الشر، لقد توصل إلى أن معظم الأشرار يمتلكون نظرة إيجابية عن أنفسهم، ويملكون مبررات لأفعالهم الفظيعة.اهـ

إن مشكلة باومستر هي في توسعته لمفهوم الشر، فالشر عنده الإضرار المتعمد بالغير، فيدخل فيه الإضرار الإيديولوجي والديني، وعلى هذا فإننا بنظر الآخر أو المحايد جميعا أشرار لا يوجد خيِّرٌ بيننا، لأننا جميعا نحمل إيديولوجيات مختلفة نحارب من أجلها، ونبرر من خلالها إضرارنا بالآخرين.

لن أخوض في هذه المعركة الكبيرة لتحديد مفهوم الشر، وإنما أود أن أنبه هنا إلى أن الأشرار في كلام المؤلف وباومستر ليسوا هم الأشرار الذين تعرفهم أنت، وأن فهمك للشر يختلف عن فهمهما له.

إننا نعيش في مجتمعات متدينة، لا يزال الشر فيها مرتبطا بالدين، يفعل المجرمون فيه أفعالهم وهم يعتقدون أنهم مخطئون، ولا تكاد تتكلم مع مجرم منهم إلا قال لك ادع الله لي بالهداية، فإني أريد أن أتوب لكنني لا أقدر على ذلك.

يقوم المؤلف بعدها بتحريف تجربة ميلغرام الشهيرة، حيث تقوم هذه التجربة على

محاولة قياس مدى انصياع الناس للسلطة، لكنها عند المؤلف تدل على أن الشرير لا يعتقد أن ما يفعله هو شر، ويبالغ المؤلف فيقول: ولم يكد يوجد بين هؤلاء المعاقبين من رفض ذلك أو من طالب بتفسير له.

والحقيقة أن بداية التجربة كانت بالنسبة للمشاركين علمية، وتعريض الآخرين (الممثلين) للضرر كان بإرادة منهم، كما أن المشاركين أصلا تعرضوا لصعقة كهربائية برضاهم، وهذا خارج عن بحثنا لأننا يمكن أن نخرجه عن مفهوم الشر، فليس كل ضرر شرا، أما مع تطور الأحداث وبداية تألم وتذمر الممثلين من الصعقات المتوهمة، فإن المشاركين بدأوا يتساءلون عن جدوى ما يقومون به، وليس كما يوهم المؤلف قراءه، لقد توقف ثلث المشاركين واعترض أغلبهم، لكن الاعتراض كان يقاوم بسلطة المشرفين التي تدفعهم لفعل شرير أو على الأقل لفعل ليس لديهم تصور كامل عنه.

مرة أخرى لقد خدعك المؤلف أيها القارئ الكريم، فحاول مرة أخرى أن لا تثق ثقة عمياء في رجل يسكر آخر النهار، فقد يكون ما كتبه ناتجا عن تحريك قريحته الإبداعية بكؤوس الأندرينا!!.

لكن وأنتم تقرأون عن تجربة ميلغرام هل أحسستم بشيء ما، أو هل شممتم رائحة شيء غير عادي؟.

نعم، أنتم على صواب: نحن أولى الناس بالتأمل في تجربة ميلغرام، لأننا أكثر الشعوب تعرضا للاضطهاد والقهر، وأحوج الناس لفهم عقلية أولئك الذين يعذبون بلا رحمة، وبلا سبب سوى الخضوع لمن هو أعلى منهم مرتبة.

ربما لا يهم المؤلف أن يفهم التجربة أو أن يحرفها لأنه لم يقم في حياته بالإمضاء على

سجل اعترافات لا يدري ما بداخله، لم يسترق النظر إلى الأوراق التي يُمضي عليها ليفهم بأي جريرة سيؤخذ، ولم يتأمل في الوجوه العابسة من حوله ليفهم غرض الجزار الكبير من كل تلك المسرحية، ولم يتساءل ذات لحظة في نفسه: لماذا يتَّبع الجزارون الصغار الجزار الكبير دون أن يُبدوا ولو قليلا من الرحمة، أو التعاطف، أو الإنسانية؟.

كان بإمكان المؤلف أن يحدثنا عن تجربة «زيمباردو» لنفهم من خلالها أثر البيئة في صناعة الجزارين، وكيفية خلق فظائع سجن «أبو غريب»، كيف يتم إلغاء العقل أو كيف تتهاوى القيم؟.

كان بإمكانه أن ينقل من أبحاث ألبرت باندورا أكبر علماء النفس في هذا العصر عن كيفية تحويل الجندي الأمريكي عن طريق شيطنة الآخر، من مقاتل من أجل السلام إلى آلة قتل وحشية لا ترى في العراقيين سوى كائنات لا بشرية يجوز أن يُفعل بها الأفاعيل.

بعد كل هذا الجهد يصل المؤلف إلى خلاصة كلامه، إنه القانون التراجعي المجنون: كلما سعيت إلى اليقين كلما أحسست بقدر أكبر من اللايقين.

وليبرهن على هذه القاعدة فإنه يضرب لك أمثلة يترافق فيها اليقين في القدرات مع عدم الحصول على ما تستلزمه هذه القدرات، وبالتالي يلجأ المرء إلى الاستحقاق من خلال السعي إلى الحصول على ما يريد بأي طريق كان، ومن خلال الاعتقاد بأن الآخرين يستحقون العقاب.

والسؤال هنا: هل هذا هو التطبيق العملي الوحيد لهذه القاعدة؟ إذا كان الأمر كذلك فما أقل تطبيقاتها.

يضرب المؤلف مثالا آخر قائما على الشك، عندما تسأل صديقك عن نظرة الناس إليك، فأنت في نظر الكاتب تشعر بقلة الأمان، وعندك رغبة مؤلمة في أن تكون متأكدا.

نعم هذا صحيح، لكن أين اليقين المحض في كل ذلك؟ وحتى لو سماه اليقين ولم يقيده بالمحض، فلا يمكننا أن نترك الشك، وعلى المؤلف أن يراجع أمثلته، ويعيد حساباته لأن فكرته ربما لم تصل.

يقول المؤلف: إن الحل هو في اللايقين.اهـ

عندما تعتقد أنك لا تعرف ستشعر بالراحة عند معرفتك لما لا تعرفه، لكن عندما تكون على يقين من أنك تعرف، فإنك ستشعر دائما بعدم الأمان من أن لا تكون تعرف، وسيمنعك ذلك من أن تعرف.

يقول: اللايقين يزيل أحكامنا المسبقة اتجاه الآخرين، ويريحنا من أحكامنا على أنفسنا.

ويكرر نفس الفكرة بأن اعتقادك بأن قيمك تامة سيجعلك تتهرب من المسؤولية وتبحث عن الاستحقاق الزائد، وأما عدم يقينك فيها فسيقودك إلى تصحيحها.

قانون المؤلف في التجنب

يقول المؤلف: كلما ازداد تهديد شيء لهويتك، كلما ازداد تجنبك له:

كلما ظهر شيء يهدد نظرة الإنسان إلى نفسه كلما ازداد الإنسان بعدا عنه، وقد يتخلى الإنسان عن سلوك طريق النجاح لأنه يخشى أن تتأثر نظرته لنفسه أو هويته.

يخاف الناس النجاح كما يخافون الفشل للسبب نفسه وهو التأثير على هويتهم، يتجنب أحدهم نشر أعماله لأنه يخشى ردة فعل الناس اتجاهها، يفضل أن يكون رساما

غير معروف بدل أن يصبح رساما سيئا.

تحدث كذلك عن صديق كان مدمنَ سهراتٍ، وكان يعتقد أن غيره ممن استقروا عائليا أفضل منه حالا، لكنه لم يستطع أن يصبح مثلهم لأنه لا يعرف أن يكون غير فتى الحفلات.

فهل ما ذكره المؤلف صحيح؟

نحن نعيش دائما في صراع قائم على الموازنة، الموازنة بين المصالح والمفاسد، فهل المساس بهويتنا هو المعيار الأوحد؟ أو هو أهم المعايير؟ أو هو معيار كبقية المعايير يمكننا أن نقدمه في سلم الأولويات أو نؤخره؟.

لا شك أن هويتنا مكونة من قيمنا، وكل منا لديه قيم مختلفة وترتيب للقيم، وتنوع في درجة التمسك بالقيم، وكلما زادت القيمة أهمية زاد تمسكنا بها ومحافظتنا عليها، ولذلك فإن إطلاق الكلام في هذا الموضع لا يصح، فنحن نراعي قيمنا ونحرص عليها، ونراعي الترتيب في القيم، إن الصراع الحادث هو صراع بين قيم مختلفة، وليس بين قيم وهوية.

إن قيمنا ليست ثابتة كما يبدو، بل هي متحركة نزولا وهبوطا في سلم الأولويات، ويختلف الناس في ثبات قيمهم اختلافا شديدا، بل إن الإيمان الذي هو أعظم القيم في حياة المؤمنين، يزيد وينقص حتى إن الرجل ليمسي كافرا ويصبح مؤمنا، ويصبح كافرا ويمسي مؤمنا.

إن أمثلة المؤلف لتعارض القيم دائما تتشكل من قيمتين لا أكثر، بينما في الواقع هو

صراع كبير بين قيم مختلفة، فلذلك تجد نتائج المؤلف سطحية، وسأضرب لك مثالا يتضح لك به كم هي الحياة معقدة، تتعارض قيمة الوفاء أو الأمانة مع الاختلاس، ينجح الموظف في المرة الأولى فيجتنب الوقوع في الخطيئة مع الدينار، لكنه قد لا ينجح أمام المليون دينار، قد لا ينجح أمام الظلم الواقع عليه واعتقاده الاستحقاق، قد لا ينجح أمام حاجته الضرورية للمال أو حاجة أبنائه، قد لا ينجح أمام انقضاء مدة دينه وترتب عواقب وخيمة على عدم السداد قد يكون منها تعرض قيمة نظرة الناس إليه أو نظرة الدائن أو الوفاء بالدين لهزَّة، قد ينجح أمام انفراد هذه الأشياء لكنه لا ينجح أمام اجتماع بعضها أو اجتماعها كلها أو وجود غيرها معها، إنه صراع كبير تجتمع فيه الكثير من القيم المتفاوتة الترتيب لتخرج في النهاية بقرار واحد أن تفعل أو لا تفعل، قد نناقش هذه الأشياء في عقلنا الواعي أحيانا، لكننا في أغلب الأحيان لا نفعل ذلك، ولذلك يصعب علينا فهم طبيعة هذا الصراع أو استخراج العبر منه.

إن محاولة المؤلف تفسير عدم قدرة صديقه على مغادرة عالم المجون، بقيمة شخصية مرتفعة عنده هو أشبه بمحاولة البحث عن قانون عام يجمع كل القوانين من غير الاستعانة بالرياضيات، فيا للهول!! كيف يمكننا أن نتحدث عن مدمن دون التحدث عن الإدمان؟!.

ولتبسيط الصورة والقضاء على أي اعتراض ممكن أقول: إن تغييرنا للقيمة المراعاة في حياة المدمن لن يوقف إدمانه، إن استمراره مع قناعته سيقودنا إذا اقتصرنا في العلاج على تغيير القيمة المراعاة إلى وجود إدمان للقيم، وسنعود مرة أخرى إلى علاج الإدمان.

إن وضع المؤلف لهذا القانون الخاص أمر يثير الشفقة فعلا، إذ أن تصرفنا مع ما يهدد

قيمنا يختلف من إنسان لآخر، ومن حالة لأخرى، فنحن أمام تعرض قيمنا أو هويتنا للمساس أو الخطر، قد نتجاهل أو ننسحب أو نهاجم أو نعزز أو نستسلم أو نغير أو نتمسك أو غير ذلك كثير.

من خلال هذه المقدمات يصل المؤلف في الأخير إلى أن وضع أطر لأنفسنا يعيق تقدمنا، ولهذا يقول: لا تبحث عن نفسك أبدا ولا تجدها.اهـ

لقد كرر الكلام هنا ولذلك أكرر الرد: القضية الجوهرية هنا تعود مرة أخرى إلى معرفتنا الحقيقية بأسباب أفعالنا، علينا أن نكون أكثر وعيا بالسبب عن طريق مصارحة أنفسنا، وعندها يمكننا أن نسير للأحسن.

اقتل نفسك

يعود المؤلف ليتبنى عقيدة بوذية أخرى، مؤكدا على أن الكتاب هو عبارة عن مزج لتجارب شخصية مع عقيدة شرقية لا يعرفها الناس ستستهويهم مدة من الزمن كما هو حادث اليوم في الغرب، ثم لا يفتؤون يردونها ويكفرون بها، قد يتصدر كتاب يحمل عنوان: «لماذا البوذية صحيحة؟» المبيعات في أمريكا لسنة أو سنوات، لكنه لن يبقَ على رأس القائمة مدة أطول، إنها مجرد نفحة عابرة سرعان ما ستزول، كما سيزول بريق هذا الكتاب بعد سنوات، نحن مهووسون بالتقليد، ويزداد هوسنا إثارة كلما كان الشيء المقلد يحمل أفكارا جديدة أو مخالفة للمعتاد، ففي داخلنا يقبع دائما طفل صغير يبحث عن لفت الانتباه أو تجريب الجديد، لكن هذا الطفل ينزلق إلى الأعماق السحيقة كلما كبرنا في السن فيصعب التواصل معه، وأحيانا ينقطع، ليتركنا في صحراء قاحلة مملة تتكرر فيها الصور

والأحداث تحت مسمى: كَبُرَ ورجُحَ عقله.

تقوم عقيدة اللاأنا البوذية على إنكار وجود ذات مستقلة، وهو ما يسمح حسب هذه العقيدة بالتخلي عن الأنانية التي تولِّد الرغبة المسببة للآلام.

يقول المؤلف: إن هذه العقيدة تبدو متزعزعة لكن هناك بعض الفوائد النفسية من جعلها منهج حياة، فعندما نترك الحديث عن أنفسنا لأنفسنا، ونترك وضع أطر نقيد بها ذواتنا سنحرر أنفسنا حتى نفعل (ونفشل) ونتطور.

يوظف المؤلف هذه العقيدة في دعم فكرته عن التخلي عن القيم الضارة، إذا كانت قيمة كونك إنسانا ناجحا في إقامة العلاقات تجبرك على البقاء محافظا على علاقة فاشلة فعليك التخلي عن هذه القيمة.

عندما يغير التلميذ قيمه أنا لست متمردا وإنما فزع فقط، فبإمكانه ساعتها أن يتحرر ويبدأ طموحه من جديد.

ثم ينتقل المؤلف لتذكيرنا بأننا لا نختلف عن غيرنا، وأن مشكلاتنا متشابهة، وأن اعتقادنا بأن مشكلاتنا خاصة أو فريدة هو نوع من النرجسية، وأن تخلينا عن ذلك سيحررنا.

وكما لا يحسن أن تعتقد نفسك نجما صاعدا أو عبقريا غير مكتشف فلا تعتقد نفسك كذلك ضحية فظيعة أو فاشلا بائسا.

نعم يتحول الكتاب شيئا فشيئا ليكون مملا لأن الأفكار الجديدة تتناقص، ويكثر التكرار واجترار الكلام.

كيف تقلل من يقينك بنفسك

يضع المؤلف في هذا الفصل مجموعة من الأسئلة المساعدة على التقليل من اليقين المحض أو الإيمان الزائد بالنفس:

1- ماذا لو كنت مخطئا؟اه

من الجميل أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، لكن من الجيد أن يكون هذا السؤال موجها إلى المسائل غير اليقينية، وأما اليقين بعد إثباته بالأدلة فمن السيء الحوم حوله.

من الجيد كذلك طرح هذا السؤال ليعمق ثقتنا بالطريق الذي اخترناه، لكن من السيء أن يكون سؤالا مَرَضِيًّا يشككنا في كل طريق، ويقعدنا عن الاستمرار في أي عمل.

في الحقيقة إن هذا السؤال موجود دائما، وهو ينغص حياة الناس، وأما مطالبة المؤلف لنا باستدعائه مطلقا فهو عمل جنوني، لا أحد من الناس يسلم من ثنائية التحفيز والتثبيط، فعندما يقدم على أمر ويقرر أن يتركه تُزيِّن له نفسه محاسن هذا الأمر وتحفزه على الإقدام عليه وتحذره من مخاطر فقده، وعندما يضع رجله في الطريق تأتيه المثبطات، ويشعر أن ما يقوم به عمل جنوني، وأن اختياره كان خاطئا، وأن عليه أن يتوقف حالا، ويمكن ملاحظة ذلك في حياة المرء اليومية عند شرائه الأشياء ذات القيمة، أو عند الاختيار في المسائل المصيرية كمسائل الزواج وعقود الأعمال الجديدة.

إذا نحن لا نحتاج أن يُذكِّرنا أحد بهذا السؤال لأن نفوسنا تقدمه بطريقة آلية، وإنما نحتاج إلى ضبطه وجعله سؤالا إيجابيا حاثا على البحث، وتأكيد المسار أو تصحيحه، وليس سؤالا شكيا سلبيا يؤدي إلى إفساد الأعمال.

من يحتاج إلى هذا السؤال هم أولئك الذين يثقون ثقة عمياء في أفعالهم، ويعتقدون أنهم يمتلكون عقلا وفهما يفوق ما عند الناس، من يحتاج إلى هذا السؤال هو من يملك سلطة سياسية أو علمية أو دينية أو عملية في أي مكان، لكن حتى مع هذه الأصناف لا تبدو المشكلة في افتقادهم لمثل هذا السؤال، بل تبدو المشكلة في صدقهم مع أنفسهم، فيظهر أن طائفة كبيرة منهم تستميت في الدفاع عن أخطائها حتى لو استدعت الكذب، فهم يعلمون أنهم مخطئون لكنهم يواصلون طريقهم مراعاة لقيم أو أشياء أخرى، كمحاولتهم الظهور بمظهر الإنسان الكامل أو الذي لا يخطئ.

وسأضرب لك مثالا تتضح به الصورة: كثيرا ما يقوم المعلمون بالتغطية على نقائصهم، ويكون ذلك إما بالكذب الصريح، أو بالاجتهاد في موضع يتطلب جوابا علميا، أو بالتهرب بطريقة ثعلبية، وهم لا يفعلون ذلك حبا في الكذب أو عشقا في المكر، وإنما يفعلون ذلك ليحفظوا مكانتهم، فإن الطلاب سيطلقون عليهم أحكاما قاسية بالخطأ والخطأين، وبالعجز والعجزين، ستصبح صفة الجهل ملاصقة للمخطئ، وسيدعي الطلبة أنه غير متمكن من مقياسه.

أحد الأساتذة كان عندما يتلقى سؤالا يعجز عن الإجابة عنه يشكر الطالب على نباهته، ويحوِّل السؤال إلى واجب منزلي دون أن يُشعر الطلاب بأنه لا يعرف جوابه.

أستاذة لغة عربية صدمها الطالب بأن شاهدها الشعري غير موزون، وهذه كارثة لأن اللغة مبنية على الشواهد، وبدل أن تصحح الخطأ في آنه أعلمته بأنها ستراجع الأمر في البيت، لكنها لم تصحح ذلك الشاهد مطلقا.

كان هناك زميل لنا في الثانوية ممن يصح أن يطلق عليه اسم عبقري، لقد حصل على

أكبر معدل في البكالوريا على مستوى البلد كله، حدثني أستاذ الرياضيات رحمه الله عن محنة وقعت لهذا الزميل عندما كان في الطور المتوسط.

كان التلميذ يرى أخطاء الأساتذة ويدلهم عليها، لقد كانوا يرون عبقريته لكنهم يريدون تحطيمه لأنهم لم يتقبلوا أن يتفوق عليهم ابن الثالثة عشر.

يقول الأستاذ: لقد أعلمته بأن علمي ينتهي عند المعادلات من الدرجة الثالثة، وأنه يمكنني مساعدته فيما دونها وأما ما فوقها فليبحث عن أستاذ غيري، لقد كان يحلُّ معادلات تقدم لطلاب الجامعات.

كان الأستاذ في هذا الموقف جريئا حكيما موافقا للكثير من سلفنا الكرام الذين كان يرتحل إليهم الناس من البلاد البعيدة فلا يجدون عندهم سوى الله أعلم لما لا يعلمونه، ولا يخشون أن يتناقل الركبان عنهم الجهل، فكان أثر ذلك أن زادهم الله رفعة.

يقول الأستاذ: لقد واجهت الأساتذة بعبقريته وأنه يجب أن يُكرم لا أن يُعاقب، لكن أستاذة الطبيعيات قررت إحالته على مجلس التأديب، لقد أرادوا تحطيمه لمجرد أنهم لا يريدون أن يروا من يريهم أخطاءهم أمام الطلاب.

أوردت هذه القصة رغم طولها لما فيها من عبر، ولأنها تتكرر دائما، فكثيرا ما يحطم المعلمون الطلبة لأغراض شخصية منها عدم المساس بمكانتهم، أو لعدم تفريقهم بين الطلبة الذين يحملون بين جنباتهم الإبداع والفهم والعلم، وبين الطلبة الذين غرضهم التشويش والبروز ونفش الريش.

وبالعودة إلى المؤلف فإنه ابتدأ العنصر بقصة امرأة خُطبت من رجل جيد (حقا)،

لكنها فوجئت بردة فعل أخيها الذي يحاول أن يقنعها بأنها سترتكب خطأ جسيما، وأنه لا مصلحة له في قول ذلك إلا منفعتها.

يشكك المؤلف بعد ذلك في دوافع الأخ النفسية، ربما تكون الغيرة، أو أنه لا يحس بالأمان اتجاه الزواج...إلخ.

قلت: يبدو أن المؤلف لم يحسن التمثيل للعنصر، فهذه القصة ليس فيها شاهد لما يريد قوله، فأول الأشياء أنه بنى على أن الزواج مثالي، وهذا أمر تختلف فيه أحكام الناس، وثانيها: لم يطالب الفتاة بسؤال نفسها ماذا لو كنت مخطئة؟ وثالثها: أنه يريد أن يفهمنا بأن الأخ مخطئ، وأن هناك سبب معين يدفعه لذلك، فإن كان السبب معلوما للأخ وهو نابع من طبائعه السيئة التي لا يتورع كثير من الناس من إظهارها أو التصريح بها كقولهم أنا أكره فلانا، وأنا أفعل هذا لمجرد أني أكرهه، فقد خرج المثال من كونه شاهدا، لأنه ببساطة يقول: أنا أفعل ذلك وأعلم أني مخطئ، وأما إن لم يكن معلوما فحري به أن يسأل نفسه لماذا أفعل ذلك؟ لا أن يسأل نفسه ماذا لو كنت مخطئا؟.

لقد قرر المؤلف أن يستمع إلى طرف واحد في القضية، ويستخرج أحكامه القاسية من هذا الاستماع، ربما لم يبلغه المثل الشهير عندنا، والذي يكرره الناس دائما: إذا جاءك الرجل يشتكي فقأ عينه، فلا تحكم له حتى ترى خصمه فلعل عيناه مفقوءتان.

يقول المؤلف: نحن أسوأ من يلاحظ أنفسنا.اهـ

مرة أخرى يلقي الكلام على عواهنه، وفي الرد عليه: لا أحد يعرف نفسك أحسن منك، غير خوارزميات مواقع التواصل!!.

قد يلاحظ الناس أحيانا أشياء متعلقة بك لم تنتبه لها، لكن هذا نادر، وقد يلاحظ

المقربون أشياء كثيرة عنك لكن هذه الأشياء لا تخفى عليك، وقد يخطئون في ملاحظة الكثير من الأشياء، والخلاصة: لا أحد يعرف نفسك أكثر منك.

يقول المؤلف: طرح السؤال لا يلزم منه أن تكون مخطئا، وطرح السؤال يستلزم أسئلة جوهرية عن المشكلة لفهمها على حقيقتها، ولابد من تحويل طرح الأسئلة إلى عادة نكررها دائما.

2- ماذا يعني أن أكون مخطئا؟

قد تظن أن المؤلف يريد في هذا العنصر الكلام على الجانب العملي: ماذا نفعل إذا كنا مخطئين؟ لكنه لا يفعل ذلك، وإنما يكرر ما قاله في السؤال الأول: البحث عن النوايا الحقيقية للفعل، ولا أدري كيف يمكن للمرء أن يعرف أنه مخطئ أو لا دون أن ينظر في فعله وفي نواياه.

يعود المؤلف لقصة الأخ مع الأخت المخطوبة معالجا لها بسطحية شديدة مبنية على الظنون، يا له من مثال!!.

3- هل كوني مخطئا سيخلق مشكلة أفضل أو أسوأ لي وللآخرين؟

ينطلق المؤلف من أننا نعيش في مشكلات لا متناهية، وأننا ننتقل من مشكلة إلى مشكلة أكبر أو أصغر، ويعود لمثال الأخ ليوضح كلامه، فللأخ في هذا الموضع خياران:

- إما أن يواصل تسببه في الاحتكاك في الأسرة، ويضر بالاحترام والثقة بينه وبين أخته.

- أو أن يشك في قدرته على تحديد ما هو صحيح أو خاطئ بخصوص حياة أخته،

ويثق بقراراتها، فإن لم يثق تعايشَ مع النتائج انطلاقا من حبه واحترامه لأخته.

يحصر المؤلف الممكنات في خيارين رغم أن الممكنات كثيرة، ويفترض أن الأمور ستسوء بينما هي من الممكن أن تتحسن رغم المعارضة، وبإمكان المؤلف أن يستدل لذلك بقواعده المبثوثة في الكتاب، فنحن نفشل لنتقدم ولولا الفشل لما تقدمنا!!.

يقول المؤلف: يُفضِّل معظم الناس الخيار الأول لأنه الطريق الأسهل، ولا يحتاج إلى تفكير كثير ولا إلى احتمال قرارات أناس لا تحبهم.

قلت: هذا صحيح فالذي يختار الخيار الأول لن يحتاج إلى إعادة نظر في قيمه كما يطلب منه المؤلف، ولكنه سيحتاج إلى تفكير كثير، وستكثر عليه المشاكل، وهو خيار صعب لا يتجه إليه أكثر الناس خلافا لما ذكر المؤلف، فالناس في العادة باستثناء بعض النفوس القوية، وبعض النفوس الشريرة لا يهتمون بإبداء المعارضة لما تجلبه من متاعب، ينظرون إلى ما يجلب لهم المشاكل فيبتعدون عنه، لا يهتمون بقول لا حتى وإن كانوا على حق، ويفضلون التعايش مع ما لا يؤمنون به اجتنابا للتبعات، ولإيمانهم بعدم وجود الكامل، ولغيرها من الأسباب، يعملون في السر ولا يواجهون ما يكرهون بالرفض.

اعتراضي الآن لا يعدو أن يكون استقراء للواقع كما يفعل المؤلف، ولكل واحد من الناس استقراؤه، وما أسهل التراشق بالاستقراءات في هذا الموضع، وما أصعب البناء على الدراسات، نحن نحتاج إلى أرقام لا إلى تخمينات.

يقول المؤلف: إن معتقداتنا تعسفية، وهي غالبا ما تنشأ لتبرير قيم ومقاييس اخترناها لأنفسنا.

نعم، هناك قناعات تنشأ بعد اختيارات، وهي من أسوأ ما يقوم به البعض، ولعل

أوضح صورة لها، والتي نعايشها كل يوم هي التبرير الناتج عن الاختيارات السياسية، فالسياسة في الغالب تُبنى على أمور اجتهادية، ولذلك يسهل على الناس التمسك بمواقفهم، وتبرير أفعالهم وأفعال من يحملون أفكارهم، لكنهم يخطئون عندما يبررون لكل شيء حتى ولو كان أخطاء ظاهرة، نحن نحتاج إلى الإنصاف، نحتاج إلى أن نكون باحثين عن الحق لا ناصرين للحزب، نحتاج إلى أن نتوقف عن التصفيق عندما نرى الخطأ أو نشك فيه، نحتاج إلى أن ننظر إلى أفعال من نؤمن بأفكارهم نظرة إيمان بعين نقدية، لا نظرة إيمان بعين تسليمية.

عندنا قاعدة علمية تقول استدل ثم اعتقد، وهي قاعدة عزيزة من تمسك بها وفقه الله إلى الإخلاص في العمل، لكنك أحيانا تصادف بعض المؤلفين ممن يعتقدون ثم يستدلون يلوون أعناق النصوص، ويحرفون المعاني حتى تتناسب مع ما يعتقدون.

ولعلنا لا نخرج من هذا العنصر حتى نذكر طائفة غلت في هذا الباب حتى تصدرت فيه أحب أن أسميهم غلاة الطاعة أو غلاة الاتباع، يتبع أحدهم شيخه فلا يعرف له خطأ مادام حيا أو مادام راضيا عنه، رغم أن الشيخ يخطئ كغيره من الناس، إنهم يعيشون حالة من الاتباع الأعمى الذي يبررون فيه كل فعل لشيوخهم مهما كان مخالفا لظواهر النصوص أو لفطرتهم أو لأصولهم، ويزداد الأمر سوءا عندما يزيدون على التبرير للشيوخ التبرير للحكام، فالحكام في الغالب أكثر خطأ، وأفعالهم أشد مناقضة للفطرة وللنصوص مقارنة بالشيوخ، ومع ذلك تجدهم يبررون أغلب أفعالهم، ويجدون لها الحلول العقلية والشرعية، فما أسخفهم!!.

ويشبههم في هذا طائفة من الناس يتبعون المتغلب أو يتبعون من يحمل السوط، والغريب أنهم يعتقدون أنهم أحرار في معتقداتهم لكنهم في الحقيقة عبيد يدورون مع السوط حيث دار، يتبنى أحدهم القول وينتصر له فإذا علم أن المتغلب يقول بنقيضه، سارع العبد للتوبة، واتخذ القول الجديد دينا وانتصر له.

ومثلهم عبيد الأحزاب والتيارات الفكرية والإيديولوجية وعبيد الأصحاب والمصالح وغير ذلك، لا يرون الخطأ والصواب إلا من خلال المعبود.

يذكر المؤلف قاعدة عامة استفادها من تجاربه وهي: إذا كان أحدهما خاطئا أنا أو كل الناس، فالاحتمال الأكبر أو الأكبر جدا هو أنني أنا المخطئ.

إذا وجدت نفسك في مواجهة العالم فالاحتمال الموجود هو أنك تصارع نفسك فقط.

نعم، هذه النقطة يمكن للمؤلف أن يفيدنا فيها لأن القليل من الناس من يمر بتجربة مخالفة الجميع، فضلا على أن يكررها مرات عديدة تمكنه من استخلاص التجارب، حقا لقد كنت مفيدا لنا في هذه النقطة!!.

الفصل السابع: الفشل طريق التقدم

يقول المؤلف: إنه كان يعاني أزمة مالية عند تخرجه من الجامعة، وإنه كان يعرف أن المال لا يجلب السعادة، ولذلك لم يجعله مقياسا لقيمته الذاتية، وإنما كان المقياس عنده الحرية والاستقلالية، وهذا ما جعله يتوجه إلى الأعمال الحرة حتى لا يملي عليه أحد شيئا.

يقول: إنه كان محظوظا ربما لأنه انطلق من الصفر في حياته العملية[1].

من النقاط المهمة في هذا الموضع سواء أكانت صحيحة أم لا أن المؤلف اختار طريقا يحبها من طريقين، وقرر أنه لن يندم إذا فشل في نهاية المطاف وعاد إلى الطريق الأخرى مهما كانت الخسارة التي ستلحقه.اهـ

إن عنوان المؤلف مغالط، إنه يحاول ربط عقولنا دائما بالأمور السلبية، والصواب أن يقال: نحن نتقدم لأننا لا نفشل، نحن نتقدم لأننا نتعلم من تجاربنا لا من فشلنا، نحن نتقدم لأننا لا نكرر أخطاءنا، نحن نتعلم لأننا نكرر أفعالنا.

وعلى رأي المؤلف فإن المعايير السليمة لقبول المتقدمين للعمل هي: كم مرة فشلت في حياتك؟ لا شك أن هذا فعل جنوني، فليضف المؤلف إلى خبراته: إن أكبر نكسة مادية تعرضت لها كانت بسبب اعتمادي على أشخاص فاشلين يحملون أفكارا جميلة حالمة، لقد كانوا يعرفون طرق الحصول على المال لكنهم لم يكونوا يحسنون الجمع، لم تنفعهم خبراتهم السابقة في الفشل في تجاوز أخطائهم وتحسين آدائهم.

نحن لسنا بحاجة لمن يحمل شهادات وأوسمة في الفشل، نحن بحاجة للناجحين

---

(1) وقد جعلها المترجم: الفشل، والمعنى الأقرب في هذا السياق: العجز والإفلاس.

الذين يملكون القدرة على الفعل الصحيح من أول مرة، وإذا أخطأوا يحسنون تدارك الأخطاء لا الوقوع في أخطاء جديدة يتعلمون منها.

إن مواساة الفاشلين لا تكون على حساب الحقيقة، والتعامل مع الناس ليس له قانون واحد، فالمُقْدِم لا يحتاج إلى الدفع، والجبان لا يحتاج إلى التثبيط، والفاشل لا يحتاج إلى اللوم ولا إلى التخدير، الفشل شيء سيء لا يجب تكرار الوقوع فيه، وعلى الفاشل أن لا ينظر إلى عثراته إلا ليستفيد منها.

مفارقة: الفشل/النجاح

ذكر المؤلف قصة جاء فيها أن إتقان العمل يُبنى على الخبرة، ثم انتقل إلى أن حجم النجاح يعتمد على عدد مرات الفشل!! وهذه مغالطة سنجيب عنها لاحقا، ثم مثل بالصبي الذي يتعلم المشي فإنه يسقط مئات المرات، ولا يجعله ذلك يتوقف ويقول: أنا لا أصلح للمشي، لكننا مع الوقت نتعلم تجنب الفشل.

يبدو أن المثال الذي ضربه للأطفال لا يصلح، والأطفال يختلفون في ذلك اختلافا شديدا، فهناك من يقف ويسير بلا سقطات ابتداء أو بسقطات معدودة، فلا يحتاج أن يلامس الفشل أصلا، وهناك من يسقط سقطة أليمة، فلا يكرر النهوض بعدها أبدا حتى مع قدرته على المشي، لأنه ببساطة لا زال يتذكر ألم تلك السقطة.

هذا ما يهمنا من أنواع تعامل الأطفال مع المشي، فهم يتجنبون الألم كذلك أو على رأي المؤلف الفشل، وليس هذا شيء نتعلمه في الكبر، إنه يعودون لأنهم ينسون الألم، ولأن ألم السقوط مجاز في الغالب فلا يوجد ألم، إنما هي أشبه بلعبة جميلة نكافح من أجل

الاستمتاع بها، إن الأطفال عندما يتألمون ألما حقيقيا لا يعودون إلى الفعل المسبب للألم أبدا، فمن احترق منهم بنار الفرن سيرى في كل فرن خطرا حتى ولو كان منطفئا، وستتوقف خاصية الاستكشاف في ذلك المكان.

ثم إن التمثيل بوقوف الأطفال لا يصح كذلك لأن العوامل التي تدفعهم للوقوف كثيرة منها أن كل من حولهم واقفون، ومنها أن ثمرة الوقوف آنية أن ترى العالم من الأعلى، وهذا غير موجود فيمن يريد أن يدخل عالما مجهولا لم يسبقه إليه أحد أو نجح فيه بعض الناس وأخفق آخرون، ولن يذوق الداخل الثمرة إلا بعد مدة طويلة من الزمن فلا يستوي المثالان.

والمؤلف كثيرا ما يستند إلى مثل هذه الأمثلة السطحية، ويبني عليها ناطحات سحاب، ويصعب تتبعه في كل أمثلته المتهافتة، فلذلك أختار بعضها في الرد عليه.

ولا يعني عدم صدق المثال الذي ضربه أننا نولد بعقول كاملة التفكير تقدر المصالح والمفاسد وتختار، وإنما نكتسب ذلك مع الزمن، وكلما زدنا توغلا في الحياة زاد إدراكنا للمخاطر المترتبة على إقدامنا، فيبدأ الإقدام مَرَضِيًّا في الصغر، ويتحسن كلما تقدمنا في السن، ليعود مَرَضِيًّا في آخر العمر، وهذا خلافا للمؤلف الذي ربط المسألة بالفشل ربطا شنيعا.

مرة أخرى أقول: إن القواعد التي يطلقها المؤلف قواعد عمياء عرجاء، يقول: إذا كنا غير مستعدين للفشل، فإننا غير مستعدين للنجاح أصلا.

وهذا غير صحيح والواقع يكذبه، فهناك من الناس من لا يقدم على شيء حتى يتيقن النجاح فيه، ولا يعمل شيئا فيه أدنى درجات المغامرة، ومع ذلك هم ناجحون، ولكل

قاعدة يضعها الإنسان أمثلة كثيرة من الواقع، فهناك ملايير البشر وتجاربهم مليئة بكل ممكن، والضابط هو الإحصاء والدراسات لا اختيار أمثلة من الحياة.

يقول المؤلف بعدها: إن الخوف من الفشل يأتي الكثير منه من اختيارنا قيما سيئة، فإذا اخترت قيمة غير قابلة للتحقيق على أرض الواقع كأن تؤثر فيمن تلتقيهم وتجعلهم مثلك، فستخاف من الفشل لأنه متعلق بإرادة الآخرين.

لا يتوقف المؤلف عن النظرة السطحية للأمثلة المضروبة، بل يتجاوز ذلك ليحدثنا عن الإرادات واعتقادات الناس من خلال قراءة حادثة عابرة، لقد ذكر لنا قصة لبيكاسو المُسِنِّ وهو جالس في مقهى يخربش على منديل ورقي، واستنتج من ذلك أنه سعيد، وأن القيمة التي يراعيها هنا كما في كل حياته هي التعبير الصادق، وهي سر نجاحه، وهي السبب الذي يجعل ذلك المنديل ذا قيمة.

من الجيد أن تكون قارئ كف بينما تتقمص شخصية مطور للذات. ليس ما تفوه به المؤلف هنا سوى هراء أشد سوءا من بعض طرق مطوري الذات الداعين للإيجابية، والذين يحاول المؤلف نقض طرائقهم، ويذكرنا بسوئها بين الفينة والأخرى.

الألم جزء من العملية

ذكر المؤلف أنه ورد في دراسة عالم النفس دابروفسكي أن نسبة غير قليلة من الناجين البولنديين من الحرب العالمية الثانية رأوا أن تجارب الحرب التي عانوها جعلتهم أشخاصا أفضل، وأكثر مسؤولية وسعادة، لقد أصبحوا أكثر اعترافا بفضل الغير، وترفعا على الصغائر...إلخ.

من الواضح أن تجاربهم كانت مفزعة، وأنهم غير سعداء لمرورهم بها، رغم التغيير الإيجابي الذي حدث في حياتهم.

استنتج دابروفسكي أن الخوف والقلق والحزن غالبا ما تمثل الألم الذي لا بد منه من أجل النمو النفسي والانفعالي.اهـ

إن نظرية دابروفسكي صحيحة إلى حد ما، فلا أحد منا ينكر أن الكثير من قراراته الحاسمة المتعلقة بذاته قد اتخذت بعد صدمة ما، إننا في الأزمات نعود إلى دواخلنا لنتحدث معها بعد أن كنا طوال الوقت متناسين لها متغافلين عنها.

لقد كان أول اتصال حقيقي مع نفسي في غرفة بطول مترين وارتفاع ثلاثة أمتار، بها مرحاض ونافذة صغيرة في أعلى الجدار بها قضبان لا تكاد تنفعك في شيء سوى التفريق بين الليل والنهار.

لقد عرفتُ في ذلك المكان الذي يمكنك أن تستفيد منه كثيرا -لكن لا أحد يحب أن يصل إليه- عرفتُ فيه معنى كلمة أنا، ما أستطيع أن أؤكده لكم هو أنكم لا تعرفون تلك الكلمة على حقيقتها، ولا يمكنكم معرفتها حتى تمروا بتجربة اعتزالية وأزمة وجودية مماثلة، أو على الأقل بتجربة اعتزالية حقيقية.

لقد كان الباحثون عن السمو الروحي في الأزمنة الغابرة يلجأون إلى أماكن يعتزلون فيها الناس ويتأملون في الحياة وفي الوجود وفي أنفسهم ليتصالحوا معها وليصلوا إلى حقائق الأشياء، كانوا يتمتعون بشيء مهم وحساس نفتقده اليوم.

لقد كان أهم القرارات التي اتخذتها ساعتئذ أن يكون لي موعد في كل يوم مع أناي بعد الخروج من ذلك المكان المظلم، نتبادل فيه أطراف الحديث ونتحدث فيه عن آلامنا

وآمالنا وأحلامنا، لكنني لم أف بذلك الوعد فالحياة في الخارج ككرة ثلج تهوي من جبل شاهق تزداد تسارعا كلما تقدمت في المسير، إننا نتحول شيئا فشيئا إلى آلات لها وظائف محددة تقوم بها، حتى إذا وجدت فسحة للراحة بحثت عن وظيفة تشغل بها ذلك الفراغ.

إن الأزمات غالبا ما ترحل عنا بعد أن تترك فينا ندوبا لا تتعافى إلا بعد مدة من الزمن، لكنها تترك مع تلك الندوب وعيا وقرارات تمكننا من التطور بعد الصدمة، ولعل في ذلك عزاء كبيرا للمُبْتلَين: إنكم في مرحلة هامة من حياتكم، وبإمكانكم في هذه المرحلة أن تصبحوا أناسا أكثر نضجا وإيجابية.

المغالطة في كلام المؤلف هو أنه يتحدث عن آثار الأزمات الوجودية، ثم يجعل تلك الآثار هي نفسها للألم، الألم لا يدفعنا للنظر في ذاتنا لأننا لم نحس بعد بخطر يهدد وجودنا.

ينتقل المؤلف للكلام عن الناس المترددين، الذين ينظرون إلى الأشياء برهبة رغم بساطتها، لقد كان أباؤنا يعيشون في عالم خال من التكنولوجيا، وعندما دخلت عليهم الآلات وأجهزة التحكم نظروا إليها برهبة فلم يحاولوا أن يتعلموا التحكم بها، كان عليهم أن يجربوا المرة بعد المرة، وسيحصلون في الأخير على نتائج طيبة.

يشبِّه المؤلف رهاب الآباء من التكنولوجيا برهاب الناس من التعامل مع قضايا محددة في حياتهم، فتاة أجبرها والداها على دراسة الطب لكنها لا تحب ذلك، فتسأل كيف يمكنها ترك الطب؟ رجل يريد أن يتزوج بنت مديره، فيسأل كيف يكلمه في الأمر؟ أمٌّ كبر أبناؤها لكنهم لا يزالون يتكلون عليها في حياتهم، وتريد منهم أن يكملوا حياتهم

ويدَعوها تكمل حياتها، لكنها لا تعرف كيف تجعلهم ينتقلون من بيتها؟.

ليست المشكلة في ملء نموذج طلب ترك الكلية، وإنما في كسر قلب الوالدين، ولا في الكلمات التي تقال للمدير وإنما في الحرج العميق عند الرفض، ولا في الطلب من الأبناء المغادرة، وإنما في الإحساس كما لو كنت تتخلى عن أبنائك.

ينتقل المؤلف إلى حياته فقد كان يعيش نفس الشيء عندما يريد التواصل مع الناس الغرباء، خاصة إذا كانوا ذوي جاذبية أو شعبية أو مثيرين للاهتمام أو أذكياء، كان يتساءل دائما كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ كانت الموانع كثيرة مثل: لا يجوز التحدث مع شخص إلا إذا كان هناك سبب عملي يدعوك إلى ذلك، كان يحس بأن الناس لا يريدون الحديث معه، وصار مقتنعا بذلك.اهـ

إننا نصنع عالما من الأوهام حولنا حتى إذا ما وضعناه جانبا وجدنا عالما آخر مختلفا تماما، عالما تسير فيه الأمور بيسر، وكما نريد في كثير من الأحيان.

سأحاول الآن أن أربط أفكار المؤلف بعضها ببعض حتى تكتمل الصورة في ذهنك، إن الأزمات الوجودية تؤثر فينا وتقودنا إلى التغيير وإلى الأحسن، وكذا يفعل بنا الألم، إننا نخاف أحيانا من الإقدام على شيء رغم أنه يسير، ولا يحتاج منا سوى أن نتقدم نحوه، إن خوفنا من الأشياء رغم سهولة فعلها هو خوف من الألم المترتب عليها، علينا أن لا نفر من الألم، وإنما نختار الألم الذي نحبه عن طريق تغيير القيم.

للأسف لم يجبنا المؤلف عن تلك القضايا الخاصة التي طرحها، كنت أود أن أسمعه يقول للفتاة: غيري قيمك وسترين أنك لم تكسري قلب والديك، أو عليك أن تسألي نفسك: ماذا لو كنت مخطئة في قراري بترك الجامعة أو مخطئة في اعتقادي أن قلب والداي

سينكسر؟ أو ربما سيقول لها الحياة دون مشكلات لا معنى لها فتمتعي بحل المشكلة.

وبدلا من ذلك يذهب المؤلف إلى كلام مشفر لا ينتمي إلى كلام الناس، ولا إلى كلام الفلاسفة، يقول: أنت لا تعرف شيئا، وحتى لو ظننت أنك تعرف فإنك لا تعرف ما الذي تفعله، لا تنس هذا أبدا، ولا تخف من هذا أبدا.

مبدأ: "افعل شيئا ما"

يتحدث المؤلف عن تجربته الخاصة عندما قرر ترك الوظيفة، والبدء في عمل خاص، لقد كان عملا مرتبطا بالشبكة العنكبوتية، لكنه لم يتحمل مسؤوليته وبقي يمارس هوايته في تنزيل الألعاب والتمتع بها، لم يكن يجد في نفسه حافزا يدفعه لذلك، مرت الأسابيع وقارب ماله على النفاد وكان عليه أن يجد استراتيجية ليبدأ.

لم تكن هذه الاستراتيجية سوى كلمات كان يكررها أستاذ في الثانوية تقول: إذا وجدت نفسك عاجزا عن حل مسألة فلا تفكر فيها، وإنما ابدأ في حلها حتى وإن كنت لا تعرف الطريقة، فبدءُ العمل سيقود الأفكار الصحيحة إلى عقلك.

إن هذه الكلمات بعد تكرار العمل بها أوحت إلى المؤلف هذا القانون: العمل يقود إلى الإلهام والإيحاء، ويقود الإلهام إلى التحفيز أو الدفع إلى العمل ، ثم تتكرر الدورة.

يقول المؤلف: ادفع نفسك لإنجاز شيء ولو كان بسيطا في العمل وستجد في نفسك طاقة لعمل المزيد، ويضرب مثالا لروائي كتب أكثر من سبعين رواية كانت القاعدة التي ساعدته على المضي قدما أن يكتب مائتي كلمة حتى وإن كانت رديئة وتافهة، لأن مجرد البداية مهما كانت صعبة ستخلق الحافز الذي يدفعك لكتابة آلاف الكلمات.

عندما تعتمد مبدأ: "افعل شيئا ما" فلن يهمك أن تفشل لأنك ستعتبر كل عمل تنجزه مهما كان تافها تقدما، وستكون الإيحاءات التالية بمثابة الجائزة التي ستحفزك للمزيد من العمل، لن تتغلب على المماطلة والتسويف فقط بل ستحصل على قيم جديدة.

ربما كان المؤلف يعاني من عدم فعله أي شيء أمام القرارات التي يتخذها، لكن هذه المشكلة لا تقع لكثير من الناس فهم لا يفتقدون الحماسة التي تدفعهم للعمل، لكنهم يفتقدون الحماسة التي ترافقهم إلى نهاية العمل، عليهم على قول المؤلف أن يفعلوا شيئا ما كل يوم، أو عليهم على قول «جايز» أن يختاروا عملا بسيطا يداومون عليه، بشرط أن يكون العمل أصغر من أن يفشلوا فيه، ثم لا يزيدون عليه، وسيجدون أنهم سيصلون في النهاية، أو على قول «ميل روبنس» إلغاء الغفوة، والعد التنازلي من خمسة إلى واحد، ثم الانطلاق بعدها.

هناك الكثير من الأفكار غيرها في هذا الباب، وهي ليست جديدة أو غريبة عنك، فكثيرا ما صادفتها في الحياة، أو مارستها كي تخرج من مأزق ما لكنك لم تجد فيها الحل أو بعبارة أوضح لم تجدها مناسبة لك.

إن المشكلة ليست في هذه الأفكار، وإنما في إيمانك بها، ولذلك إذا كنت تبحث عن حل فاختر واحدة منها ثم آمن بها، أو ابحث لنفسك عن فكرة تتناسب مع ظروفك، وعندما تجدها سيكون من السهل الإيمان بها، لأن بنات الأفكار أعز وأقرب إلى القلب.

الفصل الثامن: أهمية قول لا

يحكي المؤلف قصة جديدة من قصص ضياعه، لقد كان زير نساء، كثير الرحلات، كثير الصداقات، سافر في خمس سنوات إلى خمس وخمسين دولة متمتعا فيها بالحياة، وكان أهم درس استخلصه من هذه المرحلة هي: الحرية المطلقة في حد ذاتها لا تعني شيئا، وليشعر المرء بأهمية الشيء عليه أن يتخلى عن بعض الخيارات المتاحة، بمعنى آخر ليشعر بالأهمية عليه أن يضيق مجال حريته.

وتعليقي على هذا الموضع موجه للداعين إلى التحرر في البلدان المحافظة، هذه هي نهاية التحرر، حياة بلا هدف وبلا معنى، نهايتها عودة أو شبه عودة إلى الحياة التي تدعوا إليها الشرائع، والفطر السليمة، والعقول الصحيحة.

يقول المؤلف: إنه سافر إلى سان بطرسبرغ الروسية، وهناك وجد الناس أكثر صراحة وأقل تملقا، بإمكان الرجل أن يقول لك: إن كلامك تافه بعد دقائق من لقائك، دون أن يعتبر ذلك سلوكا عدوانيا منه ضدك، إنهم لا يتظاهرون بحب شيء لا يحبونه.

لقد افتتن المؤلف بهذا السلوك إذ أنه كان يعيش في مجتمع غربي يكثر فيه اللطف الزائف، الذي يجعلك غير قادر على تحديد مقدار الثقة الذي يمكن أن تمنحه لمخاطبك.

يصرف المؤلف صفحتين كاملتين ليبين لنا باستنتاجات خرافية أسباب لجوء الروس لهذا التصرف!!.

الرفض يجعل حياتك أفضل

يقول المؤلف: إن من مساوئ كتب التفكير الإيجابي أنها تحاول أن تجعلنا متقبَّلين وإيجابيين إلى أقصى حد ممكن.

وفي الرد على ذلك يقول المؤلف: إن إيماننا بقيم يُلزمنا المحافظة عليها، ولا تتم المحافظة عليها إلا برفض ما سواها من أعمال وقيم تؤثر فيها، وإذا لم نرفض لم تكن لنا قيم ولا هوية.

وأما الرغبة في تجنب الرفض، وتجنب المواجهة، وقبول كل شيء، فهي تدخل تحت الشعور الزائد بالاستحقاق، وأصحابها يحاولون التظاهر بأنهم لا يعرفون أي نوع من أنواع المعاناة.

إن الشيء الذي لا يعرفه المؤلف هو التوسط والاعتدال، إنه دائما ما يضع القارئ بين سندان ومطرقة، إما أن تكون مداحا مجاملا أو أن تكون وقحا.

الحدود

بدأ المؤلف بسرد قصة روميو وجوليت، ثم عقب عليها بأن بعض الباحثين يظن أن شكسبير وضعها حتى يسخر من الرومانسية ويظهر حماقتها.

إن الحب الرومانسي مثل الكوكايين يحرك نفس الأجزاء في دماغنا، ويخلق لنا مشكلات أكثر من التي يحلها.

يقول المؤلف: إن الحب الصحي هو الذي يتحمل فيه كل طرف مسؤوليته، ويمكن لطرفيه من إبداء الرفض ضد شريكه ومن قبول الرفض كذلك.

ينتقل إلى العلاقات عموما فيقول: لا يمكن لعلاقة أن تكون صحية إذا كان أحد الطرفين يتحمل مسؤوليات الطرف الآخر أو يُحمل مسؤولياته إلى الطرف الآخر، ومن المهم جدا أن تتحدد المسؤوليات فلا تبقى هناك مساحات غامضة.

لن تصبح سعيدا إذا حل الناس مشاكلك، ولن يصبحوا سعداء إذا حللت مشاكلهم، قدم العون إذا اخترت ذلك، ولا تعتبره واجبا عليك.

يجري تجاذب قوي بين نوعين من الناس يعتقدان الاستحقاق الزائد، نوع يجعل من نفسه الضحية، ويلقي باللوم على الآخرين منتظرا فارس الأحلام الذي سينقذه، ونوع يلقي باللوم على نفسه على أشياء فعلها غيره، ويعتقد أنه إذا أنقذ شريكه فسيحصل على الحب والتقدير الذي طالما انتظره.

يقول المؤلف: إن هذين الصنفين من الناس عادة ما يكونان معا، وغالبا ما يكونان قد نشأا لأبوين يحملان نفس السمات.

إن هذه العلاقة غير الصحية تفشل في تلبية الاحتياجات الحقيقية للشريكين، والحل في نظره أن يحل كل شريك مشاكله بنفسه ولا يلقي بالمسؤولية على شريكه، ولا بأس بعد ذلك أن يتلقى المساعدة منه من غير أن يعتبر الشريك أن ذلك واجب عليه أو يخشى العواقب الوخيمة للرفض.

وإذا لم يستطع الإنسان فهم استجابته هل هي طوعية أم واجبة فعليه أن يسأل نفسه: إذا رفضت أمرا أو رفض شريكي أمرا فما أثر ذلك على العلاقة؟.

إن كان الجواب: أثرها كارثي، فهذه علاقة مَرَضية مشروطة، مبنية على تبادل منافع.

ولذلك يجب أن تكون حدود العلاقة بين الشريكين واضحة، وقوية غير مبنية على

تبادل المصالح وإلقاء المسؤولية.اهـ

كبقية المباحث يكثر المؤلف من التعميمات والاستقراءات لأفعال الناس، وبإمكاني أن أفعل مثل ذلك، ولكني لا أريد أن ألقي وجهة نظري من غير إسناد إلى دراسات، ولعلي أطلع على بعض ما كُتب في الموضوع فيما استقبل من أيام، وأضيفه إلى الطبعة الورقية.

كيفية بناء الثقة

يطلب الناس منا إبداء الرأي حول أفعالهم أو أقوالهم، بعضهم اعتاد على فعل ذلك مع كل أحد، وبعضهم يطلب رأيك بالخصوص، ما رأيك في ما أطرحه من أفكار؟ ما رأيك في الطهي اليوم؟.

كثيرا ما تكون إجاباتنا عبارة عن مجاملات، الطهو جيد رغم أنك لم تستطع أن تمرر منه لقيمات.

لكن المؤلف يرى خلاف ذلك فقد عود نفسه على الإجابة الصادقة حتى ولو كانت صادمة، وخصوصا مع زوجته، وهي تبادله نفس الفعل، يصطدم أحيانا بالأنا الموجود في داخله فيجادل لكنه بعد ساعات يتراجع أو ينتصر على أناه، ويُقِرُّ بأنها على صواب.

إذا كان أهم أولوياتك أن لا يصدمك شريكك، ولا تصدمه، فستنهار علاقتكما دون أن تشعرا بذلك.

يبدو أن المؤلف محق إلى درجة ما فيما يقوله هنا، لا يمكن أن تقام العلاقات بين الناس على عدم تصحيح الأخطاء، ورفع اللبس عن الإشكالات، لأننا ببساطة لا ننسى، وكل

ما نلاحظه مسجل في ذاكرتنا، لا يحتاج إلا إلى لحظة فارقة يتم فيها استدعاؤه ليشهد نهاية مأساوية لعلاقة طالما وصفت بالوثيقة.

لقد تحدثنا عن غلاة الطاعة سابقا، وعرفنا كيف تكون طاعتهم عمياء لشيوخهم، وهاك هذه المفاجأة المتعلقة بهم: إن تلك العلاقة الوثيقة بينهم عندما تتمزق تتحول إلى نار محرقة، يتحول فيها الشيخ الذي كان أعلم أهل الأرض إلى سفيه كذاب مخادع سارق...إلخ.

وذلك أنهم قوم حرموا الإنصاف فيغلوا أحدهم في تعظيم وحماية جناب شيخه، ونفي العيوب عنه، لكنه مع ذلك يجمع في بواطن نفسه المثالب والمعايب، درى بذلك أو لم يدر، وعندما تتقطع أوصال المحبة يستدعي أحدهم الذكريات أو الأرشيف ويقرأه بعين السخط.

فلندعهم الآن ولنعد إلى ما ينفعنا، ففي الأثر: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن» يرى فيه محاسنه كما يرى عيوبه، وليس الأمر كما يصوره المؤلف إما أن تكون صريحا صادما أو لا تكون، وإنما هو كبقية الأعمال في الحياة يحتاج إلى تسديد ومقاربة، يجمع فيها المرء بين أهمية النقد، وزمانه، ومكانه، وأثره على المتلقي.

يتحدث المؤلف عن الثقة بين الشريكين فهي أهم أركان وجود علاقة متينة، وبلا ثقة تصبح إخبارات وأفعال الشريك محل شك دائم.

يتحدث المؤلف عن العلاقة التي تدمرت بسبب الخيانة الزوجية، ويرجع أسبابها إلى فقدان الثقة وليس إلى الخيانة في حد ذاتها.اهـ

يا له من مجتمع متحلل، يعيش فيه الرجل ديوثا سعيدا، يسأل عن كيفية العيش مع

من تخونه لأنه لا يقدر على فراقها.

يتحدث المؤلف عن الأسباب الدافعة للخيانة فيتحدث عن الأسباب النفسية ويُهمل أهم الأسباب، إنها الحرية الملعونة التي فتحت أبواب الجحيم على الغرب، وجعلته مستشفى مفتوحا للأمراض النفسية، يتحول فيه رجل خمسيني أب لسبعة أطفال إلى طفلة ابنة ست سنوات، وتتبناه أو تتبناها عائلة أخرى لتسهر على رعايتها.

إن حشر رجل وامرأة في مجتمع متفسخ، في غرفة مغلقة ومطالبتهما بالتعفف ومراعاة القيم والشراكات شيء أشبه بمطالبة مجنون بأن يتصرف تصرفات عقلانية، فما أجمل العودة إلى قيمنا الجميلة وتراثنا العريق وفيه: «ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان».

أحكي قصة ذلك الرجل الطفلة وكُلِّي حسرة أن يجد إنسان عاقل متعته في أن يصبح تافها سفهيا، ثم أن تنتقل تلك السفاهات إلى مجتمعنا عبر وسائل التواصل الهدامة، فنصبح مجتمعات شبه محافظة رابضة على براكين نائمة تتفجر بين لحظة وأخرى.

لا أريد أن أكثر من تلك القصص المفجعة، فإن ذكر أمثالها شبيه أو قريب بإشاعة الفاحشة بين الناس، ولكني أنبه على أمر مهم وهو أن على المصلحين قرع هذه المواضيع بعد أن تفشت في المجتمع بدل التغافل عنها، ولئن كانت ساحة العقلاء والمتدينين تقل فيها أمثال تلك المخازي إلا أن المجتمع جزء منهم، وهم جزء منه، والانعزال عنه غير ممكن ومحاولة إصلاحه وفهم مشاكله من الواجبات.

يتكلم المؤلف بعدها عن إصلاح الثقة المكسورة ويبنيها على خطوتين:

الأولى: اعتراف المخطئ بالقيم الحقيقية التي أدت إلى خيانته ويتحمل المسؤولية.

والثانية: أن يبني المخطئ جسور الثقة من جديد من خلال تأكيداته الفعلية.اهـ

نعم لا يمكن إصلاح شيء فاسد من غير معرفة سبب الفساد، ثم إصلاحه:

إن إصلاح العلاقة دون بيان أسباب فسادها أشبه بعلاج آثار المرض، يبدو المريض معافى لكن المرض لا يزال في باطنه ينهك جسده، وإصلاح العلاقة بعد بيان أسباب انكسارها أشبه بعلاج المرض، يُشفى الإنسان منه لكنه يبقى عرضة لعودته، وإصلاح أسباب الفساد كعلاج المرض وأسبابه، يرتاح الإنسان منه ويكون محصَّنا من عودته.

الحرية من خلال الالتزام

يقول المؤلف: إن الثقافة الاستهلاكية السائدة تجعلنا نطلب المزيد في كل شيء، لكن المزيد ليس هو الأفضل دائما، والصحيح هو العكس فغالبا ما نكون سعداء بالأقل!!.

يعتمد المؤلف في إثبات هذا الكلام على ما يسمى «مفارقة الاختيار» والتي تقول: كلما زادت الاختيارات المتاحة لنا كلما صرنا أقل رضا بالشيء الذي اخترناه لأننا على علم بجميع الامتيازات في الخيارات الأخرى التي خسرناها، ستمضي أوقاتا طويلة متسائلا هل أقدمت على الخيار الصحيح حقا؟.

بعد رحلة طويلة مع الأحكام الارتجالية يقرر المؤلف أخيرا أن يستعين بالدراسات، فيستدعي مفارقة الاختيار، لكن المؤسف أن هذه النظرية لم تنجح الدراسات اللاحقة في تأكيدها، والأسوأ من ذلك أن بعض الباحثين جعلها مجرد أسطورة.

لقد اطلعت على بعض الدراسات في مجال التسويق ولدي الخبرة الكافية في التعامل مع الناس في هذا المجال، إن المزيد قد يكون الخيار الأفضل لرفع المبيعات، فأحيانا تبيع

منتوجا لا يعرف الناس قيمته أو يظنونه غير جيد لأن ثمنه منخفض فيزهدون في شرائه أملا في العثور على شيء أحسن منه، فإذا أحضرت لهم ذلك الشيء الأحسن سواء أكان نوعا أو أنواعا متعددة وعرفتهم بالفارق الكبير في الثمن، فإنهم يقررون شراء الأرخص ولا يكثرون التفكير لأنهم صاروا على يقين بأنهم لا يريدون أن ينفقوا كل ذلك المال من أجل تلك البضاعة حتى ولو كانت جيدة، ففي هذه الحالة كان المزيد دافعا لدفع الناس للشراء، وهو دافع كذلك لحصول الرضا النفسي للمشتري لأنه أغلق باب الاختيارات الأخرى، فالضابط هنا هو حصول الرضا النفسي، وليس الاقتران بتعدد الاختيارات أو قلتها.

إن وجود قطعة أو علبة واحدة من سلعة معينة قد يدفع المشتري للعزوف عن أخذها حتى لو كانت مما يقتنيه الناس يوميا، هذه طبيعة الإنسان، يخاف من آخر الشيء لأنه يربطه دائما بالفُضالة.

إن وجود الكثير من الخيارات سبب من أسباب اختيار الناس للمتاجر التي يشترون منها، وهي سبب قائم بذاته في أسباب النجاح، ومن المعيب حقا أن يأتي من يتحدث عن خلاف ذلك.

قد تتسبب الاختيارات الكثيرة في ارتباك المشتري وتركه الاختيار جملة، وخاصة إذا كان الاختيار ليس بيده، بل بيد من أرسله، لكن وجود خيار واحد كذلك يدفع الكثير من المتسوقين للعزوف عن الشراء، وخصوصا إذا كان المنتج المفضل غير موجود، إن الأسباب التي تجعلنا نُقدِم على الشراء أو الترك متعددة وغير محصورة، وقلة الأنواع

وكثرتها هي سبب من الأسباب لكن تأثيرها في الجملة غير كبير، وهو مرتبط مع غيره من الأسباب وليس في معزل عنها.

إن طبائع الناس مختلفة ومتنوعة جدا فهناك من لا يحب أن يشتري حتى يستقصي، وهذا لا يعجبه وجود الخيار الواحد ويسعد بكثرة الاختيارات، وهناك المرتاب وهذا يعجبه الخيار الواحد، وتربكه كثرة الاختيارات، وهناك غيرهما كثير.

بعد هذه الجولة التسويقية التي ابتدأها المؤلف وأفسدتها عليه، ينتقل المؤلف إلى مسألة حساسة، وهي هل الأفضل الالتزام بالشيء الواحد في العمل والعلاقات والإقامة أو تنويع التجارب؟.

وخلاصة جوابه قوله: إنه من المحتمل أن يكون تنويع التجارب ضروريا ومرغوبا فيه زمن الشباب، لكن الالتزام بالشيء سيمكنك من الولوج عميقا حيث يوجد الذهب.

إن تجربة الشيء أول مرة لها طعم خاص لكن التكرار سيجعلها تجربة عادية، ينطبق الأمر نفسه على الممتلكات المادية، والمال، والهوايات، والوظائف، والأصدقاء...إلخ.

يقول المؤلف: إنه بعد التزامه صار أكثر مردودية، لقد وجد فرصا أكبر، وصار يشعر بالتحرر، من خلال الانكفاف عن التشتت والتلهي والاشتغال بما هو تافه، ومن خلال جمع التركيز، والانتباه، وتوجيههما إلى ما هو أكثر فاعلية في جعله أحسن صحة وسعادة.اهـ

ببساطة: المؤلف كان يعيش حياة طيش ومجون، وقد توقف عن هذه الحياة التافهة فوجد المتعة في التوقف، وهو ما أثر على تفكيره بخصوص الالتزام أو عدمه، فقد ربط بين عدم الالتزام والطيش.

إن المؤلف في هذا الموضع يخاطب قلة نادرة من الناس ممن هم على مذهبه القديم، فليس متاحا لكل واحد منا أن يعيش في أماكن مختلفة، وأن يمارس مهنا مختلفة، وينشئ علاقات متنوعة، وأكثر الناس مستقرون في هذا الجانب، ومن أَكثرَ التجارب في باب تجده في الأبواب الأخرى ملتزما، والالتزام هو اختيار الناس في كل لحظة جاءتهم فيها الفرصة للتنويع والتبديل، فمرحبا بالمؤلف في هذا العالم الجديد عليه.

ليس الأمر بهذه البساطة في تحديد الأفضل بقاعدة عامة كما هو دأب المؤلف دائما، فأحكام العمل تختلف عن أحكام الإقامة، وأحكامهما تختلف عن أحكام العلاقات، وهلم جرا.

ولا أجد في هذا الباب شيئا جامعا ذا قيمة سوى أن الالتزام يمكن أن يكون مع عدم الاستقرار، وهذه مسألة نفسية، فيمكنك أن تؤجر شقة على أمل أن تحصل على أخرى أفضل منها، أو على أمل الحصول على سكن، أو أن تكون معرضا للطرد منها في أية لحظة، لكنك مع ذلك تعيش في نفسك حياة مستقرة، وتمارس أعمالك المرتبطة بسكنك كما لو أنك مستقر في ذلك المكان من دون أن يتأثر شيء في حياتك.

الفصل التاسع: وبعد ذلك تموت

يحكي المؤلف قصة وفاة صديقه المقرب عندما كان يبلغ من العمر 19 سنة، صديقان تافهان يُمضيان وقتهما على شاطئ بحيرة مع الغناء، والخمر، والفتيات، ومع حلول الظلام قفز الصديق في البحيرة من علو عشرة أمتار، لم يكن يجيد السباحة، وتشجنت قدمه بسبب الإكثار من الخمر، لم يعرف الناس مصدر الصراخ لإسدال الليل ستائره، فحال ذلك دون السرعة في إنقاذه، استقر صديقه في قاع البحيرة، ولم تكلل جهود الغواصين في استخراجه إلا بعد ثلاث ساعات.

كانت ثلمة أخرى في قلب المؤلف جعلته يدخل في موجة اكتئاب جديد، كان الناس يُلقون عليه قصائد السلوى، وكان يظهر التفاعل، لكن لا شيء تحسن في أعماقه.

ظل بضعة أشهر يحلم بصديقه، وقد نقل شيئا من تلك الأحلام الخالية من المعاني، ذكَّرني كلامه بصديق لي توفي منذ سنوات طويلة، وكان لوفاته أثر على نفسي.

لقد حظي المؤلف بأحلام كثيرة مع صديقه، لكن صديقي ذهب مفضلا الانزواء في زاوية النسيان، إذ لم يزرني في المنام إلا مرة واحدة، وكان ذلك بعد سنوات من وفاته، لم أجد في نفسي يومها سببا يجعلني أراه تلك الليلة، فسيرته لم تجل بخاطري منذ مدة طويلة، كما أن السبب الذي يستدعي حضوره في لاوعيي لم يكن موجودا أو على الأقل لم يظهر لي، رأيت في ما يرى النائم أني أدخل مسجدا كبيرا أعرفه للصلاة، وكانت الصلاة لم تقم بعد، دخلت الباب وكان في منتصف المسجد فرأيت عن يميني شابا يلبس برنسا سعوديا

تظهر عليه الفخامة والرياشة، وكان وجهه يتلألأ نورا، لقد كان شيئا لا أقول لا يوصف لكنه شيء غريب لم أعهده في الدنيا، كنت أنظر إليه نظرة من يعرفه فهذا الشكل مألوف بالنسبة لي، وبعد فترة أقصر من رمشة عين بانت من خلف ذلك النور ملامح وجه صديقي فتقدمت إليه، وأثناء تقدمي أُلقي في روعي أن صديقي ميت رغم أن كل شيء يبدو حقيقيا، وعرفت أن هذه القصة لا تتكرر كثيرا، سلمت عليه وكان فرحا مستبشرا، وبادرته بقولي: أوصني، فنطق بثلاث كلمات هي وصية جامعة لمن ملك قلبا واعيا، وانتهت الرؤيا أو الحلم.

قد تتساءلون عن تلك الكلمات التي أبقيها في سري، هي ببساطة لغز مكشوف لمن أراد الفوز بالخلود الأبدي لا أجد في نفسي أن أبوح بها حتى أعمل بها.

كنت أريد أن أحكي المزيد لكن ذلك سيقطع المجال أمام عرض أهم الأفكار في الكتاب ومناقشة المؤلف فيها فنعود إليه وهو يستخلص العبر من وفاة صديقه: لقد أدرك من خلال تلك التجربة أن الموت لا مفر منه، وعليه أن يواجه مشاكل الحياة، لأن تجنبها يعني أنه يتجنب أن يكون حيا، لقد شكلت هذه التجربة نقطة تحول حقيقية في حياة المؤلف، تخلَّى عندها عن الكثير من السلبيات، وبدأ يلمس النجاح.

شيء يتجاوز أنفسنا

ذكر المؤلف قصة الأكاديمي الثائر إرنست بيكر الذي وضع كتابه الشهير «إنكار الموت» وهو على فراش المرض أو بتعبير أوضح على فراش الموت.

يقول المؤلف: إن الكتاب يطرح فكرتين أساسيتين:

- الإنسان يمكنه أن يتصور نفسه بشكل مجرد، ومنها تصور واقع لا يكون فيه

موجودا، وهو ما يسبب لنا رعب الموت.

- يدرك الإنسان موت جسده فيحاول أن يبقي أثره من خلال اسم على مبنى أو أثر في نفس طفل ويسمي بيكر ذلك (مشروعنا للخلود)، ويعتبر الحضارات البشرية كنتاج لهذا المشروع، وما الحروب والصراعات إلا مشاريع خلود تصطدم ببعضها، وعندما ندرك أن مشاريع خلودنا فشلت وأن نفوسنا المتخيلة ستفنى كما تفنى أجسادنا عندها يصيبنا قلق رهيب يسبب الاكتئاب.

ويخلص بيكر إلى أن الخطأ هو في مشروع الخلود، وعلى الناس أن يتقبلوا حقيقة أنهم سيموتون.

الجانب المشرق للموت

نقل لنا المؤلف مشاعره وهو يتقدم شيئا فشيئا إلى حافة قمة رأس الرجاء الصالح، ليطل على عالم آخر مليء برائحة الموت وبالأدرنالين.اهـ

ربما عشنا لحظات مثلها على قمة جبل بحافة ساحقة، أو في سيارة تسير بسرعة جنونية، أو في عمق بحر متلاطم الموج، أو في أي مكان آخر نرى فيه الفاصل بين الحياة والموت لا يتعدى شعرة رقيقة أحدَّ من السيف، قد يعجز كثير من الناس عن فعل ذلك، وقد يفعل بعضهم ما هو أجرأ منه، ولا أجد في ذلك أي متعة، ولا أدري كيف يتمتع الناس بذلك، يقول صديقي وهو جالس فوق صخرة ناتئة من جبل: أتمنى لو أبقى هنا طوال الوقت!!.

يقول المؤلف: إن مواجهة حقيقة موتنا يزيل من حياتنا القيم التافهة السطحية، لكنه

يفاجئنا بسؤال مؤلم يمكن اعتباره على رأي بيكر السؤال الوحيد الهام حقا في حياتنا: «ماذا ستترك من بعدك؟».

لكن الحقيقة هي أن هذا السؤال سؤال تافه نابع من عقيدة إلحادية، فما يضيرك أيها التراب اللاواعي أن يبقى ذكرك أو أن ينمحي، ما يضيرك أن تكون كملايير الناس الذين رحلوا دون أن يُبقوا أثرا، ما عالمنا على رأيك إلا حلقة في فلاة، إما أن تنتهي نهاية مأساوية فلا تبقى قيمة لمذكور أو منسي، أو تتطور تطورا رهيبا فتصبح مذكوراتهم عنك مضحكة أو بلا معنى.

لكن السؤال المهم حقا عند المؤمنين، وهو المقياس الوحيد لمدى فزعهم من الموت: «ماذا قدمت لغد؟» فليذهب الذكر والأثر، وليبق العمل.

ينقل المؤلف عن بيكر: إننا لا نسأل أنفسنا ذلك السؤال لأنه صعب، مخيف، ولأنه ليست لدينا فكرة عما نقوم به، إن الموت هو البوصلة لأنه الشيء الوحيد الثابت، وإذا تركنا الإجابة عن السؤال المتعلق به فإننا سنسمح لقيم سطحية بغيضة أن تصبح هامة في حياتنا.

يقول: الموت هو الشيء الوحيد الذي يمكننا أن نكون على يقين منه، ولذلك يجب أن يكون هو البوصلة التي نوجه بها جميع قيمنا.اهـ

لقد حصر المؤلف يقينياته في الموت، لكن غيره من الناس يملكون دائرة أوسع من اليقينيات، ولئن كان الموت رادعا وموجها للعقلاء، فإن كثيرا من الناس لا يجدون فيه موعظة بل هو دافع لهم لتحرير أفعالهم وعدم ربطها بأي قيمة دينية أو أخلاقية، والرابط الحقيقي الذي يردع الناس، ويوجههم إلى ترك الرذائل، وطلب الفضائل هو: وجود

الحساب، كل فعل تفعله في سرك أو علنك هو مسجل، وسيأتي اليوم الذي تحاسب فيه، فتجازى على الخير، وتعاقب على الشر.

لكن المؤلف يكابر مرة أخرى، فيقول: الطريقة الوحيدة للراحة مع الموت هي: أن تكون أكبر من ذاتك، أن لا تعيش لنفسك فقط بل لشيء أكبر منك.

لا يزيد المؤلف على أن يطالبنا بأن نجعل قيمنا إنسانية لا فردية أنانية، لكن ألم ير في حياته أناسا مجرمين أنانيين إلى أقصى الدرجات يستقبلون الموت بصدر رحب لأنهم يعتقدون أن الموت هو النهاية وليس بعدها شيء.

ألم تبلغه قصة جيفري دامر القاتل المتسلسل الذي آمن بالتطور كما آمن به المؤلف فقاده ذلك إلى الإلحاد والاستهتار بالأرواح البشرية، لقد قتل 17 ضحية وأكل أجزاء من بعض الجثث، يقول في لقاء صحفي أجري معه: لم أشعر أني سأحاسب.

لكنك في المقابل لن تجد مؤمنا بالبعث يفعل الشر ثم يفرح بالموت، قد تختلف مفاهيم المؤمنين حول الشر لكنهم يجمعون على تركه، ويقعون فيه وهم يحذرونه، وإذا وقع فيه أحدهم من غير إحساس بالذنب، أو خوف من العقاب فاعلم أن في نفسه عدم يقين من البعث، وأن إيمانه قد لا يتجاوز لسانه.

يعود المؤلف مرة أخرى ليحدثنا عن الشعور الزائد بالاستحقاق، إنه يحشر جميع مشاكل العالم فيه!!.

لقد نجح الواعظ الكامن بين ثنايا الموت في جعل المؤلف يتخلص من كل إدمان، ويحدد هويته، ويواجه شعوره الزائد بالاستحقاق، ويتحمل مسؤولية مشكلاته...إلخ.

لكن هذا الواعظ لا يفعل نفس الشيء في قلوب الكثيرين، لقد أصبحت قلوبنا كقلوب المغسلين، يتعاملون مع الجثث كما يتعامل النجار مع الخشب، ضاع الصمت والخشوع الساكن بين القبور فصارت طقوس الدفن فرصة للتلاقي وتبادل الأحاديث، وتحولت مجالس العزاء إلى مجالس لهو وسمر، فما أحوجنا اليوم لمن ينفض الغبار عن هادم اللذات، ويعيد بعث مواعظه إلى الحياة.

الخاتمة

ربما سنكون مخطئين إذا اعتبرنا كتاب «فن اللامبالاة» لمارك مانسون عديم القيمة، فقد احتوى على العديد من الأفكار الجيدة التي يمكن أن تقدم إضافة لمحاولات الإنسان البحث عن حياة أفضل، لكن كان بإمكانه جمع هذه الفوائد في ورقات قليلة تحفظ وقت وعقول القراء من الأمور التافهة والعبارات البذيئة التي مُلئ بها.

وكتعليق عام ختامي على الكتاب أقول: إنه تجربة المؤلف في تجاوز فشل وضياع كان يعانيه لفترة طويلة من حياته، يحاول نقل التجربة مُجسدا لها في نظريات صالحة لجميع الناس على اختلاف طبائعهم وبيئاتهم وتاريخهم، ومزينا ذلك بقصص وهمية حرفها من واقعه ومن كتب السير وحياة المشاهير، مستعينا في ذلك على خبرته التسويقية، وعلى براعته في كسب ود مستمعيه، وأما أسلوبه فمتفاوت القوة مع اضطراب وعدم تنسيق للأفكار، تجد بعض المواضع القوية كآخر الكتاب عند ذكر الموت، وكثيرا من المواضع المملة والمشوشة التي تدفع القراء لعدم متابعة القراءة، فلا يقدر على إتمامه إلا طويل النفس.

لست أزعم أنني فهمت مراد المؤلف في جميع المواضع من كتابه، ولا أنني تمكنت من استخراج كل الأخطاء التي وقع فيها، ولا أن كل ما تعقبته فيه صحيح، لذلك أتمنى من القراء الكرام التأمل في المكتوب، والتعقيب عليه بما يرونه موافقا للصواب، لعلها تصل إلي يوما فأصحح ما في نسختي من أخطاء، أو مراسلتي بالتعقيبات عبر:

البريد الإلكتروني: ammarhamza390@gmail.com

أو صفحة الفيسبوك: : https://www.facebook.com/ammari.hamzaa

دمتم موفقين وإلى لقاء آخر بإذن الله.

ملحق بأخطاء الترجمة العربية

الترجمة عموما جيدة أو هي ممتازة مقارنة بما هو موجود في الساحة، ويمكن للقارئ العربي أن يقرأ النسخة العربية دون الحاجة لقراءة النسخة الأصلية، ثم يقول من غير تردد: لقد قرأت الكتاب.

بعض الترجمات الركيكة

- Tell me if this sounds familiar to you

قال (ص:13): إن كان ما سأقوله الآن يبدو مألوفا لك فأخبرني

والصواب: أخبرني إذا كان هذا يبدو لك مألوفا

- Hiding what is shameful is itself a form of shame

قال (ص: 20): إخفاء ما نخجل منه هو خجل نظهره

والصواب: إخفاء ما نخجل منه هو في حد ذاته مخجل.

- I used to think "mediocre" was a kind of vegetable that I didn't want to eat.

الجملة ببساطة تعني أن المؤلف كان يعتقد أن كلمة "mediocre" تعني نوعا من الخضار الذي لا يحبه، لكن الكلمة تعني الشيء المتوسط الجودة أو نحوها أو الشيء الدنيء، أما المترجم فترجمها (ص: 150): كنت أظن أن "متواضع" نوع من الخضار لا أحب تناوله.اهـ

مما جعل القراء لا يفهمون غرض المؤلف.

بعض الكلمات المستبدلة

- ترجم (ص:13): «somebody» إلى: «شيء».

- ترجم (ص: 39) «premise» إلى: الفرضية الأولى.

- ترجم (ص: 61) « into his late twenties» إلى: (إلى أن قارب عمره ثلاثين عاما).

- ترجم (ص: 94) «a dead empire» إلى: إمبراطور ميت بينما الصواب إمبراطورية ميتة.

- ترجم (ص: 127) «With great power comes great responsibility» إلى: المسؤولية الكبرى ترافق السلطة الكبرى، والترجمة الأقرب لها: مع القوة العظيمة تأتي المسؤولية العظيمة، لكن المترجم غير الترجمة بما يتوافق مع ما قام به المؤلف لاحقا من تبديل موضعي المسؤولية والقوة في الجملة.

- ترجم (ص: 126) «Spider man» إلى: الرجل الوطواط بينما الصواب الرجل العنكبوت.

- ترجم (ص: 138) «Half a dozen» إلى: مجموعة بينما هي ستة أو نصف دزينة (12).

- ترجم في مواضع كثيرة من (ص: 156) «buttons» إلى: مفتاح بينما هي أزرار وقد تسبب ذلك في تشويه المعنى تماما.

- ترجم (ص: 164) «priority» إلى: مشكلة بينما هي أولوية.

بعض المعاني الخاطئة

- It’s like this one time I tripped on acid … And yes, I just used my LSD hallucinations

يتحدث المؤلف عن تعاطيه مادة كيميائية مهلوسة، بينما الترجمة (ص: 19) تتحدث عن دوسه أسيدا حارقا أدى إلى الهلوسة.

- The point isn’t to get away from the shit. The point is to find the shit you enjoy dealing with.

ترجمها (ص: 27) إلى: الفكرة ليست في الابتعاد عن تلك القذارة الفكرة هي أن تجد حلا يناسبك أن تتدبر أمرها وتجد حلا.

والصواب: النقطة المهمة ليست الابتعاد عن تلك القذارة، النقطة المهمة هي أن تجد القذارة التي تتمتع بالتعامل معها.

- Dissatisfaction and unease

من المواضع الحساسة التي كانت تتطلب الدقة في ترجمتها لقيام الكثير من المفاهيم عليها، لكن المترجم لم يحسن اختيار معانيها قال (ص: 39): القلق وعدم الرضا والأصح أن يقال: عدم القناعة والسخط.

- The premise is

(ص: 39) ترجمها إلى: الفرضية الأولى، وهو ما يجعلك تنتظر الفرضية الثانية، بينما الترجمة الصحيحة تقول الفرضية هي.

- harsh

ترجمها (ص: 40) البشعة المزعجة لكن الأدق القاسية أو اللاذعة.

- (T)

(ص: 40) ذكر المؤلف أن حرف (T) مكتوب على قميص باندا الخيبة، ومن المفترض أن الترجمة تكون (ت) لكن المترجم جعلها (خ) ولعل الصواب أن تكون (ص) لأني أظن أن المقصود بـ: (T) هو (True).

- to add on that extra room to the house

ترجمها (ص: 45): حتى تشتري بيتا أكبر بغرفة من بيتك الحالي، بينما الحديث هنا عن إضافة غرفة للمنزل.

- The corner office

ترجمها (ص: 52) المكتب الأفضل

بينما المقصود المنصب الأعلى، إذ أن مكاتب الزاوية هذه تكون بواجهتين زجاجيتين، وتكون للرؤساء التنفيذيين وأمثالهم، فليس المقصود المكتب الأفضل، وإنما المنصب الأفضل.

- (ص: 131) يسمع المؤلف كلمات من زوجته فيجادلها أحيانا ثم يتراجع بعد بضع ساعات، ويقر بأنها كانت على صواب.

حرفها المترجم إلى أن المؤلف يقر بأنها كانت محقة سواء كانت على صواب أم لا.اهـ وهو ما يخالف تقريرات المؤلف من التزام قول الحقيقة.

- من الترجمات الخاطئة الخطيرة تحريف معنى اللاأنا في البوذية (ص: 177) فالمؤلف يقول: عدم وجود الأنا، والمترجم يقول: وإن عليك أن تتخلى عن فكرة أنك موجود أصلا.

- (ص: 239) لست متأكدا من هذا الموضع، يقول المؤلف: «likely necessary» ويترجمها المترجم: بالتأكيد ضروري بينما هي من المحتمل ضروري.

إسقاط بعض المعاني والكلمات

رغم أن تغيير المعاني عيب في الترجمة إلا أنه يحسن فعل ذلك أحيانا، وقد وُفق المترجم في تحويل كثير من الألفاظ والمعاني النابية، ولكنه ترك الكثير.

أسقط المترجم الكثير من الكلمات والمعاني، وأوضحها ما ورد في عنوان الكتاب حيث أسقط كلمة «subtel» التي ترجمها في (ص: 23) بالذكي.

يسقط أحيانا بعض الأسماء التي يذكرها المؤلف ويستبدل ذلك بما يدل عليها ومن أمثلة ذلك استبداله «the Huffington Post» بالصحيفة المشهورة (ص: 45) وإن كان السياق في هذا الموقع يقتضي تسميتها في حال الاستبدال بالمدونة، ولكنه في مواضع أخرى يسقط دون أن يستبدل فيحصل خلل في المعنى ومن أمثلة ذلك ترجمته (ص: 15): أن الإنسان يفكر أحيانا بمشاهدة فيديوهات على اليوتيوب ثم يبدأ في التفكير بعدها مباشرة بأنه مختل عقليا لأنه يريد مشاهدة تلك الفيديوهات، وقد أسقط المترجم في هذا الموضع اسم المغنية الممثلة التي أراد هذا الشخص مشاهدة فيديوهاتها فجعل الجملة مبهمة، ولو استعاض عن ذكر اسمها بقوله فيديوهات ماجنة لاتضح المعنى.

أسقط (ص: 26) اسم المؤلف واستبدله بذلك الشخص رغم عدم قيام هذا الاستبدال بالمعنى، ولا أدري العلة في ذلك خصوصا وأنه أورد اسم المؤلف في نفس الصفحة في فقرة أخرى.

أسقط (ص: 112) جملة طويلة: « Child dying of throat cancer? At least you don’t have to pay for college anymore!».

أسقط (ص: 116) جملة: «or superstitious means to achieve ».

يترجم «not give a fuck» إلى: عدم المبالاة أو الاهتمام لكنه (ص: 177) ترجمها إلى: عدم المبالغة في الاهتمام، وهذا مشكل فإن الكتاب يقوم على عدم المبالاة، وتحويل الكلمة إلى: عدم المبالغة يُغير معناها، صحيح أن المؤلف يوهمنا أن عدم المبالاة مطلق لكنه في مواضع يُفهم من كلامه أنه يقيد هذا الإطلاق، ولهذا يجب علينا أن نتصرف مع إطلاقاته بنسق واحد إما التقييد مطلقا بالمبالغة أو عدم التقييد مطلقا.

من المواضع التي كثر فيها تصرفه في معنى النص بما يخرج عن الإطار الذي وضعه المؤلف ما وقع في (ص: 184).

بعض الأخطاء المطبعية

يعتبر الكتاب جيدا من حيث قلة الأخطاء المطبعية فيه مقارنة بغيره من الأعمال، لكنه باعتبار كونه ترجمة لكتاب بيعت منه ملايين النسخ غير جيد، فقد حوى عشرات الأخطاء المطبعية أذكر بعضها:

(ص: 6) تقرأ هذا الاكتاب (تقرأ هذا الكتاب).

(ص: 12) لا يمكن أن يحبه أحدا (أحد).

(ص: 67) من مخرج إلى سريع سهل إلى (من مخرج سريع سهل إلى).

(ص: 180) يقول: ماذا لو كنتَ مخطئا، والصواب: ماذا لو كنتُ مخطئا.

(ص: 229) يقول: لا عن أنك استخدامك، والصواب: لا عن استخدامك.

الفهرس